حافــة الجريمَـة

مجموعة قصصية

محمد عبد الحليم عبد اللّه

الطبعة الأولى
٢٠١٨ م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية
قصص وروايات

تصميم الغلاف:
محمد جمال

لوحة الغلاف بريشة
محمد عطيه

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

عبد الله، محمد عبد الحليم، 1913 – 1970.
حافة الجريمة: مجموعة قصصية/ محمد عبد الحليم عبد الله.
ط 1 – القاهرة: دار المعارف، 2017.
184 ص، 19.5 سم
تدمك 3 8646 02 977 978
1 – القصص العربية القصيرة.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 813.01
رقم الإيداع: 27308/ 2017
رقم أمر التشغيل: 1/2017/102
رقم الكونجرس: 0 – 840600 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

حافة الجريمة

لم يكن على شاطئ النيل أحد فى هذه اللحظة، وكان سائرا يملؤه الخوف ولو أن الشمس لم تغرب بعد. وحقول القمح فى أيامها الأخيرة.. سنابل تنتظر الحصاد، وكرم نخل يلوح من قريب جذوعه فى لون تربة الأرض.

لا يدرى إلى أين يذهب، وحتى الخاطر يزلزله ليس مستطيعا أن يبوح به لأحد. لأن مجرد البوح به يعنى وقوع جريمة فى التو واللحظة. صرخة امرأة أو صياح رجل تعقبه حوادث لا يمكنه وقفها.. حوادث مثل الطوفان.

وهو لذلك يمشى الهوينا وقد كتم خواطره.. يكاد يكتمها حتى عن نفسه، لكنه مزلزل من الداخل، ففى عين امرأة شك خطير حين همست له بهذا الخاطر فوضع كفه على فمها بحركة لا إرادة فيها. كأنما ليمنع الفأل السيئ أو ليتقى وقوع جريمة..

غير أن الفم المسدود لم يمنع العينين أن تفضيا بما تشاءان.. أكثر من الفم.. بل آزرتهما الدموع.

وعندئذ دس فى جيبه «غدارة» وسار على النيل. ذيل جلبابه تحت إبطه حتى لا يتعثر ورائحة عرقه تصل إلى أنفه من الجهد.

وكان الهدوء الخارجى يؤكد له بمنطق لا يعقله هو أن شيئا

رديئا لم يحدث. فلم ينتبه إلى النيل الهادئ ولا إلى السعف الذى لا يهتز ولا إلى ناى يناغى على الشاطئ الثانى للنهر.

وسار يزفر ويتلفت ولكن الهدوء الخارجى أخذ يعيد نفس المنطق لكنه لا يستطيع أن يبتلعه.. إنه خائف. عليه أن يحمل الهم وحده لعدة ساعات وإلا تحولت القرية إلى ساحة قتال. وربما قبل أن تنقشع المعركة يتبين الطرفان أن القتلى أو الجرحى فيها كانوا قربانا لإله طائش.. إله وثنى لا يعرف الرحمة.

ثم هو بطبعه مشهور بأمرين.. إنه يضع «القرش» فى مكانه و«الطلقة» فى مكانها. لم يسرف ولم يتعد وإن كان قوى البناء شجاع القلب.

وقف يضرب الأرض برجله ويتلفت كدليل ضل الطريق. وحلق فوق رأسه غراب فنظر إليه وتبسم.. إنه لا يريد أن يرى ما يدعو إلى التشاؤم. ثم سار بضع خطوات لم يذهب بعيدا. ووقف مدهوشا خافق القلب فقد رأى على الأرض أثرا للعبة يحبها ابنه كاد يشم فيها رائحته. وهو شخصيا قد علمه إياها. وهو شخصيا قد لعبها وهو صغير.

جنينة وحقل صغير. بساط من التراب خطط وسقى بالماء وزرع بسعف النخيل وغصون الشجر وعلى رأسه كومة مرتفعة صبت يد منها الماء بإناء فتكون المنظر.. منظر يكبر الطفل ويصغر الرجل.. ذكريات ماض ومستقبل..

وتلفـت.. ليس هنا أحد، لكن.. كأنمـا أحس أن أنامل ابنه هى التى صنعت هذا الشـىء، وتذكـر أنه يعبر مـن أرضهم ومن غير المحتمل أن يجىء ابنه حتى هنا..

وتسـمر فى مكانه. طافت برأسـه ذكرى عداوات وإحن يشـغل القرويـون بها قلوبهـم إلى مدى طويـل. كأنما الليـل الخالى من المشاغل مكلف بأن يحتضن هذه العداوات ويربيها ويغذيها.

ونظر إلى الشـمس، إنها على وشك أن تغرب. وتموجت حقول القمـح فى حركة مثل حركة النهر وخشخشـت من نسـمة عابرة. وكسـر عينه ونظر إلى الشمس. كان يرجوها بقلبه ألا تغيب فليس معنى غيابها والموقف كما هو إلا جريمة وهلاك.

ثم اتجه نحو النهر. كان مسترسلا فى حركته هادئا مثل الحصير وعلى شاطئه الشرقى يقوم الجبل الأشهب الذى ترتمى عليه الأشعة ثم تحول بصره إلى الحقل والجنينة تلك التى زرعها طفل.. سعف نخيل وأعواد خضراء.. وماء وساقية. وموقع قدم لطفل فى سن ابنه مرسوم على الأرض المبلولة بماء الرى حول الحقل الصغير.

وتأوه.. وتحسـس جيبه.. كانت الغدارة فى مكانها منه. ونظر إلـى النهر.. كأنما ليسـأله هل هناك جريمة. ولـم يفطن إلى ذلك الهيكل القديم الموضوع هناك مقلوبا لمركب شـراعى ريثما يصلح.. أو لعله أهمل..

ومـن وراء هذا المركب القريب من ماء النهر رأى صبيا فى مثل

سـن ابنه.. سـت سـنوات.. قد شـمر أذيال جلبابه وربطها حول خصره وبدت ساقاه السمراوان المعروقتان وقد ابتلتا بالماء وفى يده كـوز من الصفيح ملأه من النهـر واتجه به ليصعد إلى الطريق ويتم اللعبة.. يسقى الجنينة والحقول.

ودق قلبه بعنف. فقد حسبه ابنه وليس به. لكن.. على كل حال فإن الموقف يستدعى عملا.

تلفت حوله كما يفعل البازى وهبط إلى مسـطح الأرض القريب من المـاء. كان الصبى يدور حول المركب ليأخـذ طريقه إلى أعلى.. إلى حديقتـه وحقله والماء فى يده وانتبـه فجأة من أحلامه على خطوات رجل ينحدر إليه.

لم يأبه به. لكنه ما لبث أن رأى فى عينيه شيئا فخاف. بغريزة الخـوف من الظلام التـى تبكى الرضيع حملق فـى الرجل وارتعد فسـقط الكوز على قدميه وسـال ماؤه على الرمل. ولم يكن فى قلب الرجل شـىء إلا صورة ابنه هـو.. ابنه المماثل له فى العمر والذى ملأ قلبه الخوف عليه من أهل هذا الطفل الذى يحمل الماء ليسـقى جنة صغيرة خلقتها أحلامه.

* * *

لم يكن فى رأسـه فى هذه الوهلة سـوى الهمسـات والوساوس والأحقـاد. كان فى مكمن لا يخطر علـى بال. كان راقدا هو والطفل

تحت المركب المقلوب على الشـاطئ علـى مقربة من الماء.. وضع يده على فمه وسـحبه ودخل به إلى هناك.. رهينة لحرب محتملة الوقـوع. فإن هناك احتمالا كبير أن يكـون ابنه قد خطف بيد أهل هذا الصبى فابنه لم يعد منذ الصباح إلى الدار وبدأ النسـوة يهمسن بأن هذا كله جائز.

ولم يكن فى نيته أن يفعل هذا. كان قد انحدر إلى الصبى بعامل من الحنين لتقارب السن. انقلب فجأة إلى ضغينة حركتها الشكوك ومع أشـعة آخر النهار رأى الصبى فى عينى ذلك الرجل شـيئا يخيفه.. بدت الصرخة على وجهـه قبل أن تنبعث من فمه فدب الخوف إلى قلب الرجل الذى لم يكن يضمر شرا. وشعر أن مصير ثلث هذه القرية معلق بصرخة هذا الولد. لن يكون هناك مجال للتفاهم وسـيدل حقد على مكان حقد آخر حتى لا يبقى فى القلوب موضع للرحمة.

لذلـك فإنه قد وضع يده على فمه وسـحبه ودخل تحت المركب فقد شعر بقلبه أن هناك علاقة ما بين هذا اللقاء ومصير ابنه..

كانـت الفرجة التى دخلا منها واقعة ناحية الماء. ناشـئة من أن جسـم المركب قلب على أرض غير مسـتوية ترتفع قليلا ناحية النهـر وتنخفض كثيرا ناحية الشـاطئ.. وعندما احتواهما المكان كان طبيعيـا أن يخاف الصبى وأخذ يردد بصوت متقطع كان الرجل يعرقله بكفه قائلا:

«ح أقول لابويا برعى.. ح اقول لابويا برعى»..

عندئذ وضع يده على فمــه برفق ليمنع ارتفاع الصوت تماما كما وضعها على فم زوجته حتى لا تقول كلمة يتشاءم منها.

وأحس وهو رابض مثل الوحوش أنه يقف على «حافة الجريمة» ولم تبق إلا شــعرة واحدة ليسقط فيها. فهناك أصوات بدأت ترتفع على الطريق. أصــوات رجال يتكلمون كلاما نصفــه دمدمة. بعضه ذهب هباء لبعد المســافة، وبعضه ذهب هبــاء لدغم الكلام. لكنه على كل حال عرف فيهم صوت أحد أقارب الصبى..

كان الظلام قد نزل. وكان لا يرى شــيئا إلا صفحة الماء تنعكس عليهــا النجوم. وفكره محلق فــى داره ويده على فم الصبى لا يريد شيئا إلا منعه من الصراخ حتى يتدبر الموقف.

وسمع خشخشــة على ظهر المركب فارتجف.. لعل فأرا كبيرا يمــر فوقه.. ورفســه الطفل برجله فــى بطنه فكبــل رجليه بيده الأخرى. إنه يريد أن يتماسك لا يريد حتى الآن أن يتردى، وعن له أن يسأل الطفل عن ابنه.. مجرد كلام.. كأنما الموقف أراد متنفسا. لو أنه يعلم أن الســؤال ربما يؤدى إلىالنــدم لكنه يريد أن يفر من هذا العبء فهو ســجين مع كائن ربما دفعه إلى الجريمة فى وحدة وظــلام وحصار ومعه منديله وغدارتــه لكن قلبه لا يزال حتى الآن رافضا أن يفعل شيئا.

قرب أذنيه من فم الطفل وسأله:

– هل رأيت ابنى أحمد؟

وكانت كفه على فمه لكنه استطاع أن يسمع كلمة:

– لا.. لا..

فتنهـد الأب. وعادت الأصوات تتناهى إليـه من أعلى الطريق. وكأنهم لم يكتفوا بأن يمروا كالديدبانات بل جلس ثلاثة منهم فوق صخرة يتكلمون. وكان صوت أحدهـم غاضبا. ارتفع فى ظلمة الليل حتى وصل إليه تحت المركب.

– لا فائدة من البحث.. هو المسئول..

– آه.. وحش.. آ.. كلهم.

ولـم يعد الصوت يصل إليـه واضحا. وأحـس أن الطقس قد بدأ يتغير. بدأت النجوم تهتز على صفحة الماء. لم يعد النهر ساكنا.

فقد أخذ نسـيم أخريات أبريـل يتحرك كخريف دافئ. وهدأت أصوات الجالسـين ثم سـمعهم يدمدمون.. أصواتهم تبتعد بما يدل على الانصراف وعندئذ أدنى أذنه من فم الصبى وسأله:

– هل رأيت أحمد؟

– ...

– هل رأيته أو سمعت عنه خبرا؟!

– ...

رفع يده من على فمه فألفى أنفاسه منتظمة. هل نام؟!.

نعـم لقد نام. غير أنه لمس جبينـه فألفاه دافئا. وقرب كفه من فم الصبى الراقد فأحس نفسه محموما. هل هو الخوف؟! هل أكلت المفأجاة بقية حيويته فأضناه الجهد وخدره النسيم..

وأيقــن الرجل أن هذا مــن عناية الله. أحس أنه ابتعد شــيئا ما عــن (حافة الجريمــة) فلو أن الصبى أصر على الصراخ لوقع شــىء لا يخطر على البال. إنه يســتطيع الآن يفكــر بهدوء نوعى. هدوء المتعبين حين يستقلون على الأرض.

وفعل.. ولمس ظهره أرضا غير مســتوية فأحــس أنها تدلكه.. مواضع الألم فى جســمه كثيرة ومعظمها فى.. القلب.. وسأل نفسه وقــد لمس عضده الغــدارة تحت ثيابه: «لماذا تنســى الضغائن؟!» لكنــه عاد فتذكر أنها يقام لها فى القرية نصب تذكارى يقدمون له بين حين وحين أعز ما يملكون.

ولفترة ما شــعر أنه هو وهذا الصبى فــى معزل عن الحوادث.. فالصبــى قد خطفه النوم وهو قد خطفه خدر حماه من أزمه الوقف. وعاد فسأل نفسه: «من الذى سيخبرنى الآن أن ابنى بخير أو بشر؟ وماذا ســأصنع بهذا الفتى النائم؟ هل أدفع به إلى الماء وأكون بذلك قد أخذت الثأر مقدما؟.. طيب.. لكن.. ماذا يكون العمل إذا ظهر أن ابنــى بخير (وتنهد).. إننى أكــون قد عملت جريمتين.. القتل بلا داع ثــم إثارة الفتن من جديــد بين عائلتى وعائلة هذا الصبى.. آه.. ماذا أعمل؟».

وتســمعَّ بأذن مرهفــة. أذن القروى الخائــف أو المتربص التى تلتقــط أدق الأصــوات وخفــق قلبه حيــن مرقت إليه فى الســكون زغرودة.. منغمــة ندية ذكرته بطزاجة القشــدة. إنها من النصف

الجنوبى للقرية ربما من امرأة بشــرت بغلام ولدته بنتها العقيم.. ربمــا تمت خطبة.. هناك شــىء جميل على كل حــال. لم تنبعث طلقــات رصاص ولا صرخات.. وليل أبريل طــرى النفس.. والوقت يمر.. وقال فى نفسه:

«يجب أن أعمل شيئا. يجب أن أعمل شيئا».. وكان محقا فتأخره فى الخارج ربما أحدث مشكلة. ولأمر ما يغطى القرية هذا السكون.

تسلل وترك الصبى نائما. تحسس جبينه بكفه فألفى عليه بوادر الحمــى.. ومن الطرق المأمونة وصل إلى داره.. يريد أن يعرف ماذا هناك ولا يزال الصبى رهينة مقيدا بالنوم.. وقبل أن يســتيقظ – إن جاز ذلك – سيعرف كل شىء..

أحس فى هذا الليلة أنه يمشــى مثل الأشباح التى يحكون عنها. ليس لأقدامه وقع. ممكن أن يقطع الكيلو متر فى خطوة واحدة. قوى غريبة ملأت جسمه وعقله وقلبه. أحس أنه منفصل عن الناس. وكل كلمات تناثرت فى الطريق أصبحت لا تعنيه.

لم يكن فى القرية شــىء غير عادى. غير أنه دهش لعدم اهتمام العائلة الأخرى بغياب ابنها.. لذلك شعر أنه شبح.. غريب يمر فى قرية لا يعرفها.. أو أنه فى حلم.. هل كل هذا معقول؟!

ووصل إلى داره. كان هدوء شــديد يخيــم عليها. هدوء الذين لا يريــدون أن يعلم أحد عنهم شــيئا. الذين يرغبون فــى مداراة زلة وقعت منهم..

كانت امرأته واقفة بالباب.. ورأى ابتسامتها ففهم أن ابنه عاد. لكنه هــم بأن يصرعها. تلك التى بذرت فى نفســها بذرة خطرة.. بــذرة تنمــو وتثمر فى يــوم واحد.. وربما ســاعة. قالــت بعد أن احتواهما الدهليز..

– عاد المشكوك.. كان بيلعب فى الغيط..

وبصق الأب على الأرض ثم على الجدار الطينى ثم سأل:

– يلعب؟! لعبت نفســه على عود.. ليته لم يعد. كان يلعب مع من؟!

فأطرقت الزوجة. وقفت كلماتها على شفتها. ثم قالت:

– مع سعد ابن..

فرد محموما:

– ابنهم؟! ابنهم؟!

– ابنهم.. زرعوا جنينة وســقوها على شاطئ النيل و.. و.. و.. وجملهم المسعور هرب منهم فى الحقول وخرجوا جميعا يبحثون عنه..

فرد مذهولا:

–جمل من؟

– جملهــم؟.. جملهم؟ كلهم خرجوا وراءه حتى لا يعض أحدا. ولا يزالون يبحثون عنه.

فتداعى الرجل جالســا. ونظر إلى السقف. كان أسود من الدخان

لكنه خيل إليه أنه يرى السماء من خلاله. ومن خلال السماء كأنه رأى الله فأطرق حاملا رأسه بين كفيه ثم نهض كالملسوع. سألته امرأته:

– إلى أين؟

فلم يرد.

وامتد به السير قليلا. ليس إلى النهر حيث الصبى تحت جسم المركب ولكن إلى بيت امرأة عجوز مشهورة بالطيبة والحيلة. طرق بابها ففتحت . وشرح لها خطورة الموقف. وأفهمها أن أهل الصبى مشغولون بالبحث عن الجمل وإنهم بكل تأكيد غير منتبهين لغياب الصبى فكل فرد منهم يظن أنه مع الآخر وإلا لتغير الموقف تماما..

وضعت المرأة طرحتها على رأسها واتجهت إلى النهر حيث ذهبت إلى الصبى وحملته وعادت به إلى داره زاعمة أنها كانت فى العزبة القريبة فرأته راقدا على الطريق على مقربة من جنينة زرعها. وها هو ذا البرد لحقه.. «تبحثون عن حيوان وتنسون الإنسان؟!». وكان تأنيبها لهم فى الحقيقة اعترافا برحمة الله..

* * *

وفى اليوم التالى كان الصبى لا يزال محموما. كل ما يقوله قريبا من قصته لا يصدقه الأصحاء من أهله.

أما الأب فلم يذق النوم وعندما نام أحس كأنه تحت هيكل مركب

قديم يجثم أنفاسه. ويحلم أن يديه ملوثتان بدم. وأن ابنه غارق فى النهر. وأن سقف الحظيرة سقط عن المواشى. وأن امرأته تعانى سكرات الموت بعد حادث ولادة.

وأن السماء تمطر غزيرا ورشح السقف يسقط على رأسه.

واستيقظ على عرقه وقت الضحى محطم الجسم فبادرته امرأته مبتسمة وهى تقول:

– وجدوا الجمل وذبحوه.. وقد علق الجزار لحمه فى الشجرة.. هناك.. (وأشارت بكف مخضوبة بالحناء).

فقال الأب.

– نشترى منه مائة رطل لنوزعها على الفقراء.

فنظرت بعينين مستفهمتين لأنها لم تكن تعلم حتى الآن ماذا جرى. أما هو فقد كان يقول فى نفسه:

«الحمد لله. حيوان مسعور ذبحه الجزار وعلقه فى شجرة. نجى أهل القرية من مجزرة.. متى يارب ننسى العداوات؟!».

* * *

التذكرة الخضراء

«لمـاذا يخفق قلبه هكذا كلما رأى القطار من بعيد يهل فى أبهة وقوة تتحدى الأحباب والأبعاد!؟».

لقـد ركب الباخرة وركب الطائرة لكنه لم يكن يوم ركبهما ذلك الغلام الريفى الذى أتم ثلاثة عشر عاما، وفى يوم خريف ازدحمت فيه محطة الركاب بشـكل غير مألوف لأن طائفة من عمال الزراعة كانوا مسـافرين إلى الشـمال، وكانوا واقفيـن بجانب أمتعتهم فى قلق شـديد، أما هو فقد كان مسـافرا لأول مرة فـى حياته. ذاهبا إلى الإسـكندرية ليدخـل إحدى مدارس المعلميـن، وليس له فى الإسكندرية قريب ولا صديق.

وأبـوه فلاح رقيـق لا يسـتطيع أن يترك أرضه ويقيـم مع ابنه فـى المدينة حتى لمدة عشـرة أيـام.. حتى تتم مراسـم الالتحاق بالمدارس.. من فحص طبى وامتحان.

ولم تكن المشكلات تدرس عادة على مسمع منه، والله يعلم سبب ذلك. وكل ما يسـتطيع أن يسـتنبطه اليوم هو أن أمـه توارى عنه دموعها وهمومها التى عاشـت فيها أكثر أيام شبابها، وأنها كانت تصرخ دائما فى وجه أبيه إذا ما حاول كشف أوراق الحياة العائلية أمام هذا الابن بالذات دون أولادها جميعا.

لماذا كانت تخاف عليه؟!.

كان الاضطراب يهز عوده النحيف والأرق يقهر ليله إذا ما وقف مصادفة على إحدى مشـكلات البيت وخصوصـا الديون.. تلك التى يتحدث عنها بهلع حين يذكر المحكمة والمحضر والبيع والمزاد.. فكانت هذه الأسـماء الغريبة مثل عفاريت وجنيات تنضم إلى عالم المخاوف فى دنياه الصغيرة. نعم.. ولذلك بات الأبوان قبيل سـفره ثلاث ليال يدبران الأمر كيف يسـافر هذا الصغير؟ وكيف يقيم فى مدينة الإسكندرية؟!.

ولم تكن هذه القضايا تفحص إلا قبيل النوم.. قبيل نومهما. بعد أن يأوى هو إلى فراشـه الأرضى فـى حجرة مع أبويه وكان يعرف أنواع الأحاديث وأهميتها من طريقة نداء الأم.. عندما تهتف باسم أبيه وكأنها على وشـك أن تسـقط فى هاوية. عندئذ يطير النوم من عينيه ويتحتم عليه أن يمثل سكون النوم وتحت سلطان هذه العملية العسـيرة يظل يستمع – فى خوف شـديد – لوصف العالم الذى لم يروه هم. وعلم بمرور الليالى التى سـبقت سـفره أنه سـيكون فى مرافقة الحاج إسـماعيل. وهو رجل من القرية له ابن موظف هناك. وأنه سـينزل فى ضيافتهم حتى تنتهى مراسم الالتحاق بالمدرسة. والخطوة التالية تدبر فيما بعد.

* * *

– «آه.. عال.. الحمد لله رب العالمين»!!.

وخرجت كل هذه العبارات مع تنهدات مرتاحة من فم الأم صدرها ورفع الأب عقيرته يطلب (لقمة) فقد طال الحديث والسهر، أما الغلام.. المسافر.. فقد تظاهر بالنوم. لكن منظر قطار السكة الحديد. ورفيق السفر. وفراق الأم والأب والإخوة الصغار. والعالم الذى لم يصفه له أحد.. كل أولئك كان أشبه بكف تقبض على قلبه الغض، أحيانا ترتخى وأحيانا تشد. وآيات من القرآن تتردد من فم الأب وهو يأكل. أما الأم فقد كانت لائذة بالصمت.. وفتح الغلام عينيه فى حذر وألقى نظرة على المشهد فرأى القلق راكدا على وجه أمه ومتحركا على وجه أبيه وهو يتناول طعامه. ثم أغمض عينيه، واستحضر صورة الرجل الذى سيكون فى حمايته فرآه طويلا عريض الصدر واسع الكرش يتكلم بأناقة ويؤكد كلامه بالحركة والأيمان. وسمع أمه تقول لأبيه:

– لا أدرى لماذا أنا خائفة.. إن هذا الرجل حلاف.. وأنا أخاف منه.

لكن.. عندما لا يكون هناك إلا طريق واحد يؤدى إلى الغاية فإننا عادة نتجاهل أخطاره.

فأقسم الأب أن كل شىء سيمشى على ما يرام، وأنه لو كانت هناك مصاعب فمن الخير أن يراها ابنه.. فكل هذا سيجعل منه رجلا.. واصطدم الغلام بكلمة (رجل) وتصور نفسه وهو فى طول أبيه وعلى شفته شارب مثله يميل إلى الصفرة مسترخ يدل على الطيبة. وشهقت الأم ببكائها فقامت وأطفأت النور. وعم الظلام وساد صمت متوتر،

تناهى فيه إلى سـمعه نباح كلاب وقرقرة دجاج ثم صفير قطار يمر بين المزارع.

* * *

وكان القلق يسود المحطة الريفية الصغيرة يومئذ بشكل مربع، والغـلام واقف بجوار الحاج يحاول بين حين وحين أن يمسـك كم جلبابه ليشعر نفسه بالأمان، لكنه يعود ويتذكر أنه ليس أباه. ولم يوجه إليـه الرجل كلمة واحدة طوال الانتظـار المرعب الذى كان الفلاحون خلاله يحـذر بعضهم بعضا من أن يتحرك القطار قبل أن يركبوا:

– خلـى بالك يـا على. تناولنـى القفة من الشـباك. والولد من الشباك.

– من الشباك؟

– بالطول.. بالطول..

– آه.. القطر بان.. شايف الدخان؟!

وسـاد الهرج والمرج وتذكر كل واحد نفسه كأنه طوفان بلا ماء وعندئذ أمسـك الغلام بجلباب رفيقه، فـإذا به يدفع يده فى عنف ويقول له:

– اصعـد ورائى. إننى سأمسـك ابنتى.. هـل تريد أن أحملك.. احمل (سبتك) واصعد به.

وتم كل شـــىء فيما يشـــبه الحلـــم. فمن المحـــال أن يتبين هذه التفاصيل. وألهمتـــه غريزة الدفاع عن النفس أن يدفع الركاب بثقل الســـبت. وبين كلمات (حاسب. اطلع. انزل. اوعى. هات. خد) فى عصبية وســـرعة وأنانية دخل من الباب الضيق البنى لعربة السكة الحديد، ووجد نفســـه على كرســـى من الخشب بجوار شباك. وجو العربة جو ســـوق متحرك كالـــذى تركه فى القريـــة. ولم يلبث أن اكتشـــف شيئا خطيرا هو أن المسافر معه موجود فى العربة. ونظر من النافذة فرأى الشمس شـــديدة التوهج على الحقول، وخيل إليه أنه ســـيرى والـــده واقفا علـــى رأس حقل وأعمـــدة التليفون تجرى بســـرعة لم يعرفها.. غريبة على من ســـار على تـــراب القرية. ولا أحد يكلمه. فشـــعر بغربة لا نظير لها. فبكى.. وعلى الرغم من كل هـــذه المصاعب التى أحس أنها فوق احتماله ظل جامدا فى مكانه.. ثبتـــه الخـــوف. وبعد زمن لا يدريه رأى رفيقه داخلا يســـد الباب فى اتجاهه إليـــه قادما من العربة الأخرى وعلـــى وجهه طمأنينة لا تصدق. ثم انحشـــر إلى جـــواره. وأخذ الغلام يتطلـــع إليه كأنما يذكره بشـــىء يسمى (الكلام). أحس أنه فى حاجة إلى أن يقول أو يســـمع، وكان هذا الضجيج من حوله نهـــر قريب لا حيلة للوصول إلى مائه العذب.

وتغافل الرجل عن نظرته المتوددة فى جلسته المنطوية ومد يده

أسفل الكرسى فأخرج كوزا من الذرة يأكل منه بشهية، وانصرف عنه، ثم استسلم بعد ذلك للنوم.

* * *

كان على محطة الإسكندرية أناس كثيرون عرف أنهم من أهل القرية عندما صافحوا الحاج إسماعيل وسألوه عن اسم الغلام. كانوا بانتظار المئونة مع (الأبونيه) أو بعض القادمين إلى الإسكندرية.. وحمل الغلام قطعة كبيرة من متاع الحاج، أما هو فحمل القطعة الصغرى التى تخص الغلام. وكادت كتفه تنبتر لكنه مع ذلك كان يتأمل ويتبع ببقية انتباهه وأعصابه الدليل الذى يسير أمامه حتى الأرض ذات البلاط المربع والسماء ذات السقف الزجاجى ويتبع ببقية انتباهه وأعصابه الدليل الذى يسير أمامه حتى لا يضل الطريق.

وجاءت اللحظة الحاسمة عندما وقفوا خارج بناء المحطة. كان ابنه بانتظاره هناك فى حلة سوداء أنيقة، وفى رباط عنقه دبوس وعلى شنبه علامة تكبر. وصافح أباه ونظر إلى الغلام ولم يصافحه. ثم انتحى بأبيه ناحية ودار بينهما حديث فهم منه الغلام أنه ليس فى صالحه، ثم ساد صمت ووقف الحاج يقلب كفيه ويطوح كميه. ورائحة الإسكندرية ونداوة البحر تملأ أنف الغلام والدموع فى عينيه. وأقبلت عربة حملت المتاع والأفندى والأخت وتركت الغلام و(السبت) والحاج واقفين على الأرض.. وأحس الغلام أن مصيره معلق فى خيط رفيع ولم يستطع أن يخمن ماذا

– سيحدث. وكان السائق على أهبة أن يأمر الخيل بالسير ونظرة تخيير بالغة الحزم تنذر الأب بأن العربة ستتحرك. فتركها الرجل وجرى فى الميدان حيث عاد بطالب عرفه الغلام ووقفا يتهامسان والعربة فى مكانها والسائق مائل العنق والخيل تبدل رجلا برجل والغلام يحس إحساس الرقيق الذى يباع. وأخيرا.. سلم الحاج على الطالب وصعد إلى العربة. فأيقن الغلام أن الصفقة قد تمت!! وسالت دمعة من عينيه كانت لكلمة عذبة سمعها من الطالب.

– أنت مثل أخى.. ستبقى معى أنا حتى تتم امتحانك.

فرد ليه فى حياء:

– متشكر.. لكن أبى سلمنى له.

فقال مداورا:

– معلهش.. آ.. آ.. إن فى بيوتهم ضيوفا كثيرين. أما نحن.. فبيتنا واسع.

وأخذ الترام يشق به شوارع الإسكندرية للمرة الأولى وهو صامت. لم يحاول أن يكلم الطالب، لأنه لا يدرى ماذا يقال، ولم يكن الإحراج باديا على وجهه بل.. كانت هناك دلائل رضا معقول.. غير أنه رأى أنه من الضرورى أن يسأل:

– هل أعطاك الحاج.. نقودى؟

– نقودك؟!. لا.

– هل تعرف عنوانه!؟

– عنوانــه!؟ لا.. حتــى لم يقــل لى عليه. (صمــت) ولكن.. لا تخف.. إنه يعرف عنوانى.. وربما مر علينا سكننا.

وماذا كان ســكنهم؟ شــقة تموج بالطلبة كل ثلاثــة ينامون فى حجرة على حشايا لا تفرش إلا فى الليل. وجلس يتغذى فى وسطهم تتسلل يده الصغيرة من بين أيديهم الكبيرة تسلل من لا حق له.

وجاء الليل. فبدأ يفكر فى مشــكلة النوم. وأخذ يحســب الزمن وهــو ينظر إلى مدخنة أحد المصانع فى حى (القبارى). فأحس أنه ولد منذ خمسين عاما، منها عشرون فى الإسكندرية. وأخذ الحنين بخناقــه فلجأ إلى الخارج.. خاف أن ينزل إلى الحارة فجلس على السلم وأطل إلى القاع حيث الظلام والرطوبة وأخذ يبكى فى صمت، وكانــت أصوات الطلبة تتناهى إليه مــن الداخل وهم يتصايحون أو يضحكون. ومل من الجلوس، فدخل فإذا بهم يشــربون شــايا ونظر بعضهم إلــى بعض.. وفى يد كل واحد منهم كوب.. ولكن الشــاب الذى أواه قدم إليه بقية شــرابه. فرفــض وبكى وكان بكاؤه امتدادا لحالته النفســية منذ الصباح. لكن ذلك أثار ضحك الطلبة. ربما قد ظنوا أنه بكى لإهمالهم إياه. وانزوى فى ركن يحاول أن يجد شــيئا يلهيــه عن النظر إليهــم حتى جاء وقت النــوم. فوجد مكانه على حشية الطالب بينه وبين الحائط لكنه لم ينم. فقد عرف طعم الأمان عندما فقده وشــعر بإحســاس مبهم معهم ينفى النوم عن كل عين.

إحساس الراقد فى العراء أو الخفير الذى يحرس كنزا ! !

* * *

وفى الصبـــاح خرجوا وتركوه وحيدا. فأكل وشـــرب وحملق فما مرآة صغيرة فرأى عينيه فى لون الدم، وذكر أن غدا موعد «الكشف الطبى» وأن عليـــه إذن أن يصون عينيه من البكاء. لكن المأزق الذى وضعته فيه الظروف والحنين والوحدة وحداثة الســن كانت جميعا ضـــده.. وعنـــد العصر كان غير قادر أن يفتح عينيـــه.. فتذكر الرمد الـــذى أصابه من ســـنتين وكيف أنه عاوده فى وقت غير مناســـب.. وفى صباح اليوم الأول والثانى «للكشـــف الطبى» كان من العسير أن يفتح جفنيه. وكان مســـتلقيا على حشـــية على الأرض فى حالة من الاستســـلام طغت على شـــعوره بالألم والحنين والمسئولية. وخلال هذه الأيام جميعا لم ير الحاج إســـماعيل ولم يسأل عنه حتى أبلغه الشـــاب الذى استضافه أن ميعاد «الكشف الطبى» قد فات وأن الحاج عاد إلى القرية مع جثمان قريب له توفى هنا.. فى الإسكندرية.

وضحك الطالـــب. كأنه تذكر الجثمان الحى الذى نســـيه الحاج وسافر.. والمصاعب التى سببها له فعرقل سير حياته..

وأقبل المســـاء. واســـتغرق فى النوم.. وأحس أنـــه يحلم.. كان الصـــداع يوقظه والنـــوم يغلبه. وانتقـــل الطلبة بعيـــدا عنه وكانت أصواتهـــم تتناهى إليه كلمـــا أيقظة الصداع. وحلـــم أن بينهم صوتا

يشـبه صوت أبيه.. وعاد فاسـتغرق ثم أحس كأن نفسا يقترب من خده.. نفسـا حارا جدا. كان فى حالـة لا يقدر فيها على تمييز ما يدور حوله فقد كان مرهقا ونائما.. لكن النفس لامس خده ثم وقعت ذقن خشـنة على خده فنهض جالسـا.. وحاول جاهدا فتح عينيه. لكن الرجل أعفاه من العذاب إذ هتف به:

– ابنى!! سلامتك..

ونسى كل شـىء إلا سلامته.. واحتضنه كمن أنقذ غريقا وعرف الابن من لهجة أبيه المرتعشة أن يبكى.

* * *

كان هـذا العام الذى ضاع من عمـره عزيزا عليه. غير أنه منحه قدرة على تحمل المصاعب. وإن كان قلبه حتى اليوم لا يزال يخفق كلما رأى قطارا يمر. أو تلميذا صغير السن يطل من نافذة القطار وفى عينيه البريئتين نظرة وداع.

* * *

وجهًا لوجه

كانت تحاول جاهدة أن تتفاهم مع هذا الذى غشها. إنها تعرفه منذ سكنت فى هذا الحى. بائع اللبن.. هذا الطيب.. الذى تفوح من دكانه روائح تشتهيها النفس. وفى واجهة محله الزجاجية أطباق القشدة المسكرة والمهلبية باستمرار. وكل الناس يثقون فيه، لكن.. لماذا غشها؟! هى بالذات. والمؤلم فى الموقف أن أحدا لن يصدقها.. وهى الآن تعذب نفسها إلى درجة لا تحتمل. فهمها للموقف وحدها دون الناس جميعا وهو أنه تستر بثقة الناس فيه وغشها هذا الغش الفادح.

شعرت أنها جائعة متعبة ساعة استيقظت من النوم عظامها تؤلمها حتى النخاع: «يالهى.. لم أكن كذلك ليلة أمس فقد عدت من عملى آخر الليل وأنا فى غاية من الصحة والبهجة كذلك فقد شهدت فيلما أنا وحبيبى.. أضحكنا حتى دمعت عيوننا. لكن.. ما هذا العناء؟!».

واتجهت إلى المطبخ المظلم – ولو أن الوقت صباح – وأشعلت النور ووابور الجاز. ووضعت اللبن على النار حتى غلى ثم أخذته وجلست وحيدة فى الشقة الصغيرة المعزولة وجلست تشرب. وعند الجرعة الأولى أحست كأن التعب غير كل طعم فى فمها. نعم لكنها

عاودت الأمر. فما لبثت أن اكتشفت أن الرجل لم يبع لها لبنا بل نوعا من الجير مذابا فى الماء لسع فمها وأحرق لسانها فأسرعت تهبط السلم إليه وغضبها يغلى. على جسمها (روب) والحر شديد وهى تشعر بالبرودة والعرق يتصبب من جبينها وأطرافها ترتعش. والمرئيات أمامها مهزوزة وهى فى طريقها للبان.

وعندما وصلت إلى باب دكانه ألفت أمامه عددا من الزبائن وهو واقف فى جلباب أبيض تبدو على وجهه طمأنينة من لم يعرف الإثم، فزاد ذلك من حدة غضبها، ووقفت تصرخ بأعلى صوتها وريقها جاف والعرق على جبينها بارد:

– أنت غشاش.. ليس هذا لبنا!!

ونظر إليها الناس فى ذهول. إن أحدا لا يصدق هذه التهمة. ولوى بعض الواقفين شفته وربتت امرأة على كتفها وهى تقول لها:

– التعب ظاهر عليك!!

فصرخت الفتاة:

– لا. إنه باع لى بدل اللبن جيرا. انظروا. إن فمى ملتهب.. شفتى السفلى قد تورمت. آه.. والعليا بدأت كذلك.. هل خدعكم وجهه الطيب.. إن.. آه.

وتهالكت على كرسى بلا مسند أمام الدكان، وقد بلغ بها الظمأ حد من ضل فى الصحراء. وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تبكى وكانت بين الوهلة والوهلة ترى منظر البائع من بين أهدابها وهو يرسل إليها

نظرة شماتة: شماتة من غشها وحدها دون الناس فكسب الناس فى صفه. وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها وهجمت عليه تريد أن تشفى غليلها وتضربه بشىء ما. وقع بصرها على وعاء نحاسى كبير فأمسكت به فإذا بها تصرخ. كان نازلا من على النار لتوه وأفرغ منه اللبن فأحرق أصابعها. وندت من البائع ضحكة صغيرة نصفها شامت ونصفها مثير وضحك منها الناس: «على الباغى تدور الدوائر» وزاد من عذابها أن أحدا لا يصدق ما بها. لا ألمها النفسى ولا ألمها الجسمى. فخرجت تتعثر فى الروب وصعدت السلم تلهث ولما دلفت إلى الصالة وجدت كوب اللبن فى مكانه فضربته بكفها فأراقته على الأرض ثم أطرقت على المائدة.. شعرت أن رأسها ملىء بالرصاص.. وأن «هرقل» نفسه لا يقوى على حمله بهذه الصورة. لكنها أحست بالجوع.. جوع وألم فى آن واحد.. إن معدتها تعبر عن وجهى الحياة فهى تحس بالشهية ودبيب المغص. وعادت إليها لقطة من الفيلم المضحك الذى شاهدته مع حبيبها.. «زوجان يتعاركان وهما يأكلان.. فكانت المرأة تأكل ودموعها على خدها. وقال لها حبيبها ساعتئذ:

– إنها تركت أسنانها تؤدى وظيفتها كما تركت عينيها تؤدى وظيفتها».

وهكذا هى الآن. وتأوهت. ورفعت رأسها ومدت يدها إلى الخبز. وقطمت منه قطمة. أخذت تلوكها فى هدوء كمن يفتش

عن فكرة. عيناها شـاردتان والصداع يدق. لكنها سرعان ما اكتشفت شـيئا أثارها.. إن الخبز مغشوش.. إنه ليس دقيق ذرة ولا قمح ولا أرز.. وبصرف النظر عن الدقيق فإن أسنانها كلها أخذت تنبح.. لقد مضغت رملا. وطعم التراب يملأ فمها.

ووقفت تفكر، لم تستطع أن تفصل بين الحادثتين.. حادثة اللبن وحادثة الخبز. لأن الطاقة الإنسـانية لا تسـتقبل الحادثة الثانية بنفس اكتمالها الأول، وشعرت كأنها مضطهدة، أو على الأقل غير موضع لاحترامها أو كأنها ليست أهلا لأن، تنال الحق العادى الذى يناله كل مواطن.

واسـتحضرت صـورة بائع الخبـز، ذلك الرجل الذى يكتسـى ملابـس الريف وملامحه فـى المدينة. الذى لـم يغير لهجته ولا فطرته ولا تقاليده. ذو الوشـم على المعصم والصدغين. والمسـتقيم مثل شعاع الشمس على الحقول.. يغشها هى؟!

وكشراع ملأه الهواء تحركت نازلة فالرجل على مقربة من الباب. مشـت تتعثـر. أطرافها باردة وريقها جاف ورأسـها فـى ثقل كرة الرصاص. حتى إذا ما وصلت إلى دكانه ألفته واقفا خلف «البنك» يبيع فى هدوء فطرى سـليم. لم تزوده الطبيعـة بإحدى علامات المراوغة الناس أمام الدكان يأخذون ويعطون لكنها وقفت وصرخت فيه:

– أنت غشاش.. أنت غشاش.. كيف تبيع لى رملا بدل الخبز.. إن أسنانى.. آه..

ووضعــت يدها على فمها كأنها تحجز بين نفســها وبين الألم. ونظــر إليها الناس فى ذهول. إن أحدا لا يصدق هذه التهمة. ولوى بعض الواقفين شفته، وربتت امرأة على كتفها وهى تقول لها:

– التعب ظاهر عليك.

فصرخت الفتاة:

– لا. إنه باع لى رملا.. انظروا.. إن أضراســى تكاد تسقط ولثتى ملتهبة. وشــفتى الســفلى قد تورمت.. اللبان وبائع الخبز.. معا.. آه.. آى..

وتهالكت على كرســى بلا مســند أمام الدكان وقد بلغ بها الظمأ حد من ضل فى الصحراء. وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذت تبكى وكانت بين الوهلة والوهلة ترى ذلك الرجل الريفى الطيب ذا الوشم على المعصــم والصدغين ينظر إليها من بين أهدابه نظرة شــماتة. شــماتة. شــماتة من غشــها وحدها دون الناس فكســب الناس فى صفه. وبلغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسها وهجمت عليه تريد أن تشفى غليلها وتضربه بشىء ما. وقع بصرها على السكين الذى يقطع به الخبز لمن يريد نصف رغيف فأمسكت بــه فإذا بها تصرخ. فقد قبضت على نصلــه بدلا من أن تقبض على يده فغاص فى كفها. وندت من البائع ضحكة صغيرة نصفها شــامت ونصفهــا مثير وضحك منها الناس: «علــى الباغى تدور الدوائر»، وزاد من عذابها أن أحدا لا يصدق ما بها. لا ألمها النفسى ولا ألمها

الجسمى. فخرجت تتعثر فى الروب بكف محروقة من النحاس مجروحة من السكين. وصعدت سلم بيتها تلهث. ولما دلفت إلى الصالة وجدت الرغيف لا يزال فى مكانه على المائدة فأمسكته وفتته. مزقته كأنه جلباب ذلك البائع ورمت به إلى الأرض فإذا به يتناثر فى اللبن المراق.. وبعد قليل سمعت مواء قطة عبرت إليها من شباك الحمام عن طريق المسقط وتسللت بخفة خطواتها المخملية ونظرتها الكهرمانية ثم أخذت تأكل الخبز باللبن.

كانت مسندة رأها إلى المائدة وصوت لعقات القطة الرتيب المتلذذ يصل إلى أذنها كأنه صوت شماتة. فأخذت تتساءل: «وهل تأكل القطة الجير».

أخذت الحيرة تدور بها.. كفراشة مرهقة أمام زجاج مقفل. لكنها.. ما لبثت أن أحست بالجوع.. جوع وألم فى آن واحد. معدتها تعبر عن وجهى الحياة فهى تحس بالشهية ودبيب المغص. وعادت إليها اللقطة السابقة من الفيلم الذى شهدته هى وحبيبها ليلة أمس.. ثم أحست كأن يده تدب إلى فخذها فى الظلام..

بادرتها رائحة لذيذة. وصلت إليها .. صافحت أنفها ثم غابت. كبقية عطر فى منديل مغسول.

ثم ما لبثت أن انغمست فى آلامها.. إن معدتها تتقلص.. كل شىء يؤذنها بالخطر. وهى وحيدة فى الشقة. وكان عليها أن تبلغ رئيستها فى المستشفى الحكومى الذى تعمل حكيمة فيه.. عليها أن تبلغها أنها مريضة. هناك أشياء لا تقبل التأجيل. لكن.. لم يعد

فى استطاعتها أن تنزل. حتى لتتصل بالتليفون..

وتذكـرت علبة الـدواء الذى تأخذه عادة عندمـا تهاجمها هذه النوبـات فقامت إليهـا.. كانت جديدة. رفعت ورقها الشـفاف ثم حركت الغطاء فانفتح فإذا بداخل العلبة شـىء غريب. أقراص بدل الحبوب. وهى لصلتها بالطب لا يمكن أن يغيب عنها هذا. وفاح من العلبـة رائحة نفاذة.. رائحة يعرفها الطفل.. إنها رائحة نعناع.. ولكنها لم تصدق نفسـها فقطمت وذاقت فإذا بالوهم حقيقة لا تقبل الجدل..

وعندئذ أحسـت بقواها تخور: «حتى الـدواء!! هذا مريع» كم تود أن تنزل إلى ذلك الصيدلى لتفضحه على قارعة الطريق؟! لكنها عاجزة تماما عن جر ساقيها. كان أولى من ذلك أن تعتذر للمستشفى عن الحضور.. رأسها من الرصاص.. وعرقها بارد..

غير أن الغضب عصف بها فمنحها قوة عصبية. فهبطت السـلم وهـى بنفـس الملابس. الـروب يلف على سـاقيها والحر شـديد والمرئيات أمامها مهزوزة وهى فى طريقها إلى الصيدلى.

وعندما وصلـت إلى هناك وجدته واقفا أمـام أحد الدواليب فى معطف أبيض مثل ورقة السوسن. على وجهه جد العلماء واستقامة مـن يأتمنه الناس علـى حياتهم. وناس يأخـذون ويعطون. لكنها دلفت إليه وصرخت فيه:

– أنت غشاش.. أنت غشاش.. تفرغ العلبة من الدواء وتضع فيها

أقراصا من النعناع؟!

ونظـر إليها النـاس فى ذهول. إن أحدا لا يصـدق هذه التهمة. ولوى بعض الواقفين شفته وربتت إمرأة على كتفها وهى تقول لها:

– التعب ظاهر عليك!!

فصرخت الفتاة:

– لا. إنه باع لى نعناعا بدل الدواء الغالى.. الغالى الغالى.. آه.. شـفتى ملتهبة.. ويدى محروقة ومجروحة.. وأسنانى تؤلمنى هل خدعكم وجهه الطيب.. آه.. أى..

وتهالكت على كرسى بلا مسند فى الصيدلية وأسندت رأسها إلى دولاب. وبين الوهلة والوهلة كانت ترى منظر الصيدلى وهو يرسل إليها بنظرة شـماتة. شماتة من غشـها وحدها دون الناس فكسب الناس فى صفة.

وبلـغ بها الغيظ حدا دفعها إلى الانتقام فتحاملت على نفسـها ودلفـت إلى الداخل.. حيث وجدت زجاجة مليئة بحامض.. كانت تريد أن تقذفه بها.. تريد أن تقتله..

لكن الناس تجمهروا وأمسـكوا بيديهـا.. وقادوها إلى الخارج حيث أجلسوها على كرسى، وقدموا لها كوبا من الماء المثلج.

* * *

أحسـت أن ريقها ابتل هذه المرة. كأنما نقعت هذه الشربة كل

عطشها... النار التى فى صدرها بدأت تبرد. وكانت مسبلة أجفانها فسمعت صوتا نسويا عذبا هو صوت المرأة التى سقتها تقول لها:

– هنيئا!!

فتحت عينيها فإذا بها تعرفها.. إنها زميلتها الممرضة معها فى مستشفى الحميات حيث يعملان معا. لم تكن فى الصيدلية حيث خيل إليها أن هذه الحوادث تدور. بل كانت راقدة فى سرير المرض محمومة.

وابتسمت لزميلتها وردت بصوت واهن:

– هناك الله!! مالى يا درية.. آه.. أنا نسيت نسيت أننى هنا. فى المستشفى الذى أعمل فيه حكيمة. آه.. يا له من عذاب.. الغش.. الغش.

ضحكت زميلتها:

– أقسم لك بالله أنى ما غششتك. لقد أعطيتك كل الأدوية التى كتبها لك الأطباء، ولذلك تماثلت سريعا للشفاء. لم أنقص ولم أبدل وليس هذا من طبعى كما تعرفين.. تعرفين أننى أخاف الله.. وحتى على الأقل أحترم ضعف الإنسان..

وعادت تضحك. شعرت المريضة أنها كانت مولودة، ولم تسمع ضحكة على الأرض. هذه أول مرة. نظرت إلى زميلتها وعادت تهمس:

– الغش.. عرفته.. قابلته وجها لوجه. فى الخبز واللبن

والدواء. وذقت بسببه العذاب. غشونى وحدى. عرفت معنى ما فعلت.. معنى سلب الدواء من المريض وأنا فى هذا الفراش يا صديقتى.. تبت!!

ردت زميلتها مداعبة:

– تبت عن الحب؟

همست وكفها على رأسها فى موضع الصداع:

– لا لو عرف قلبى طريق الحب ما فعلت كل هذا.. آه.. دعينى أنام!!

* * *

يوم الحصاد

يــوم أن رأى جماعة من الصبيان يرجمــون هذه النخلة بالطوب ليسقطوا من عليها البلح.

ويــوم أن جرى وارءهــم مطاردا لهم صراخهــم يتقدمهم وغبار الطريق يتبعهم، وفى رأس أحدهم جرح صغير.

ويــوم أن صعدها للمــرة الأولى فى حياته فبــدت له الأرض أما عزيزة بعيدة مع أنه لم يرتفع عنها أكثر من خمســة أمتار. وتصور ســاعتئذ أن قوة خفية لا تقاوم تشــده إلى أسفل بذراعين لا تعرفان التردد فسارع بالنزول قبل أن يسقط من فوق النخلة.

ويــوم صعدها كلهــا بمهارة وأخذ يتأمــل العراجين عن قرب.. بعيــن هؤلاء الصبية على الأرض. هــؤلاء الذين يحلقون بأرواحهم حول الطيور ويخاطبون العصافير والغربان مناشــدين أن تسقط لهم من ثمرها شيئا.. وفى المرة الأولى هذه لم تشغله الثمار كثيرا وإنما شــغله منظر الأرض. حين بحث عن موقع دارهم بين الدور.. هذه التى بدت ســمراء قميئة يغطيها الحطــب، والتى يقع عليها أعلى أبراج حمام فى القرية.

وخيل إليه فى المرة الأولى أنه إنســان أعلى من الإنسان. أحس بنفحات متتابعة كترادف الموج فيها الخيلاء والروحانية والقوة.

وبدت له سـرعة الناس وأحجامهم أقل مـن المألوف ثم ما لبث أن شـعر بقشعريرة تغمر بدنه.. حين تصور أن الحزام الذى يشده إلى جذع النخلة قد انقطع به فهوى من حالق...

ويـوم صعدها ورأى الدخان يتصاعد من معظم الدور يوم السـوق يوم تحمل الكوانين قدور اللحم بالتوابل وتنعقد على السطوح البنية غـلالات من دخان الطبخ ويعود الفلاحون من الحقول مبكرين نوعا ما فتلقاهم عند مدخل كل دار روائح العشاء الساخن.

لكـن هـذه النخلة أصبحت مصـدر متاعب له. فهـى ذات نوع مـن البلح نادر الوجود فـى القرية وهى الوحيـدة وبجنبها وليدة لـم يحن وقت إثمارهـا بعد. وقد تربص بها جماعـة من الصبيان. ينهضون إليها مبكرين ليسـقطوا بلحهـا بالحجارة وقد يزورونها وقت الظهيرة متخذين من بعدها عن القرية نوعا ما واستقلالها بين الحقول فرصة مواتية لإسقاط ما يريدون.

وهو لذلك لا ينسـى المطاردات المتعددة لهم، ولا يوم أن جرح رأس جابر ابن الحداد حين رماه بحجر صغير ثم اشتبك معه الحداد فى عراك وتجمع حولهم الناس يلومون أو يهدئون أو يصلحون.

وكانـت هذه الحادثة الأخيـرة عصر هذا اليوم فعـاد إلى داره بنفس قد امتلأت غيظا. ولما علمت زوجته بالخبر أخذت تلومه ثم ذكرته بما كان يصنع وهو صغير وحكت له عما كانت تعانيه حينما تـرى عناقيد البلح على النخيل فتحس أنهـا فى ارتفاعها لابد أن

تكون شـيئا مختلف المذاق، وكم نازعتها نفسها وغلبتها فرجمت النخيل بالحجارة.

لكنـه علـى الرغم من كل هذا نـام وهو مصمم علـى عمل. على أن يقطع العراجين ويعلقها فى سـقف الـدار وإن لم تكن قد بلغت غايتها من النضج فخير له وهذه حالها من أن يدعها لأيدى الصبيان والحجارة.

وبات طوال هذه الليلة يحلـم أحلاما مختلفة. أحلام رجل تأبى نفسـه أن تتنازل عن بلحة لطفل حتى ولـو كان بلغ هذا الطفل من حداثة السـن وقوة التطلع حد أن يتوسـل إلى الغراب أن يسـقط له بلحة كما يفعل كل أطفال الريف.

بـات يحلـم أن أحدهم صعد إلى فوق فلسـعت وجهه (الضبابير) فنزل يصرخ ورآه هو فسخر منه. ومرة يحلم أن الحجر ارتد إلى رأس طفل رماه فسـال دمه وسـخر هو منه. ومرة يحلم أنه يصعد النخلة ليجز عراجنيها ففوجئ بأنها تطول مترا كلما صعد على جذعها مترا حتى إذا ما نظر من فوقها إلى الأرض رأى ارتفاعا شـاهقا والناس فى حجم الدجاج والبيوت فى حجم الصناديق والترع مثل شريط من الورق المفضض ففزع من نومه خائفا ثم عاد فاستأنف النوم..

لكنـه على كل حال صمم على أن يجـز العراجين بما عليها من بلـح وها هو فى الطريق إليها ظهر اليوم فى يده سـلة فيها أدوات الحصاد ويتلفت حوله فى فضول فلا يكاد يرى أحدا.

واليوم شـديد الحر من أخريات أغسـطس وأعواد الذرة الصيفية حولت الحقول إلى غابات شـديدة الخضرة عميقة السـكون وتراب الأرض سخنته الشمس، وهدأة الوقت تبشره بحصاد هادئ.

وعندمـا انتهى إلى يمينه امتداد حقول الذرة وبدا الطريق أكثر استنارة كان إلى يمينه حقول زرعت قطنا وإلى يساره على الطريق مجرى ماء تكاثرت على شـاطئيه أعواد الغاب. فأحس بحاجة إلى الغناء.. إلى أن يسمع صوت نفسه.

ثم ما لبث حقله أن لاح له. فى مدخله تلك النخلة الثقيلة الحمل ومـن أصل جذعها نبتت بنت لها، ويكـون الأصل مع الفرع زاوية حادة اتخذ الصبيان منها ملعبا ظليلا عدة مرات.

لكنه اليـوم لا يرى تحت النخلة أحدا. وقف ورفع رأسـه إلى أعلـى. كان السـعف سـاكنا وحقول القطـن من حوله لـم يبدأ فى حصادهـا بعـد.. ورأى الارتفاع الشـاهق والعراجيـن المرصوصة والسماء الصافية. ثم ما لبث بصره أن نزل إلى الأرض. خلع جلبابه وبقـى بالملابس الضيقة التحتانية وشـد بحبل واحد. وأخذ يصعد وهو يدندن.. سعيدا مسرورا. فلن يكون هناك بعد الآن من يمد يده إلـى ثمراته.. ماذا عليه لو قطفها غير كاملـة النضج وعندما يعلق العراجين فى سـقف إحدى الحجرات سترطب كأنها لا تزال على أمها النخلة.

وأخذت أطـراف قدميه من الأمام تتـداولان الصعود. على ذلك

السلم الخطر الذى صنعه قطع الجريد عن النخلة.. على التعرجات التى تذكر العين بمنظر شريط من الرمل انحسر عنه الموج.

الأرض تبتعد عنه والسماء لا تقرب منه.. يا إلهى.. ومنظر الحقول رائع ساكن.. كسجادة خضراء وأخرى ملأتها الزهور البيضاء تلك هى لوزات القطن.

وعلى مقربة من العراجين توقف ثم نظر إلى الأرض وتبسم. أحس بنفس تلك الموجات ليده المتتابعة التى تشبه ترادف الموج.. خيلاء وروحانية وقوة. ثم صعد قليلا حتى صارت العراجين أسفل منه وألقى نظرة على الجريد المتكاثر واستل سكينة وأخذ يجز وسقط الجريد على الأرض واحتك بالعراجين فسقط معه بعض البلح، وعندئذ توقف وأخذ ينظر إلى الأرض ولم يفطن إلى أن هناك ثلاثة من الصبيان على رأسهم جابر ابن الحداد كانوا متوارين فى ظلال البوص يرقبون حركة الرجل. كانوا قد سبقوه فلما لحقهم ورأوه من بعيد تواروا عن عينيه، وجلسوا فى مخبئهم ينتظرون الفرصة لكنهم رأوها بعيدة المنال أما هو فقد استمر فى عمله. أخذ يجز الجريد المتكاثر على مقربة من العراجين والجريد يتساقط، لكنه بعد قليل توقف خائفا مرتاعا مقطوع النفس يمسك نفسه بحبل الصعود حتى لا يسقط من الخوف.

كان عليه أن ينتظر فى هدوء حتى يرى ما سيئول إليه الموقف ثم يصرخ بعد ذلك. لكنه أدرك أن الصراخ لن يجدى شيئا. فقد أصبح

الطريق مقطوعا عليه. محاصرا لا يستطيع النزول إلى الأرض وكل دقيقة تمر تدنيه من الهلاك المحقق.

كانت العراجين على مقربة من رجليه المرتعشتين والسماء تبدو له من خلال السعف. وعندئذ دعا الله.

وأحس بالخجل وهو يبتهل. وكأنه يسمع قهقهات صغيرة منبعثة من الأرض أعلى قهقهة فيها هى قهقهة جابر ابن الحداد الذى شج رأسه من أجل بلحة، وتعارك معه أبوه ولامته فى سبيله زوجته ولم يلم نفسه بل سارع بجمع الثمار قبل الأوان. وها هو ذا غراب يحوم على القرب منه فسمع أصواتا أربعة من بينها صوت جابر تنادى الطائر بأن يرمى لهم بلحا من فوق وعندئذ هتف الرجل: «تعالوا أيها الأولاد.. تعالوا.. خذوا بلحا.. تعالوا». كان صوته عاليا صريحا وأخذ يهز العراجين برجله فيتساقط ما عليها. وجرى الأولاد يهللون به والسماء تمطر بلحا. كان كل شىء هين.. وود هذه اللحظة لو احتواهم جميعا وقبل أفواههم وهى مليئة بالثمار.

لكن ما لبث أن لفت نظرهم إلى الخطر الذى يتهدده وعلى مقربة منهم ولكنهم لم يروه.

كان يهتف بصوت خائف باك عجب منه الصبيان:

– «أفعى.. أفعى.. أفعى».

ونظر إليها الأولاد مرتاعين. رأوها طوقا ملفوفا حول جذع

النخلة على بعد ثلاثة أمتار من الأرض وعليها ظل النخلة الصغرى فبدت شبه مخدورة والرجل محاصر فوق.. رآها أول الأمر وقد خرجت تسعى حثيثا إلى تحت من قلب النخلة حين كان يبحث عن الجمار. فخرجت من قلبه. لعلها كانت فى وكرها أو كانت تتصيد أفراخا أو تأكل من الثمار فوق النخلة.

وشل الخوف حركة الرجل فإن عادت قتلته وإن نزلت احتك بها. وهو والنخلة الآن جسم واحد. حبل الصعود يجمعهما والموت على بعد أمتار منه.

وهتف جابر ابن الحداد بأعلى صوته:

– «لا تخف سأعود إليك».

ثم جرى.. صبى فى الثامنة من عمره حليق الرأس واسع الفم مبحوح الصوت. جرى بسرعة وفى يده جريدة من تلك التى سقطت من النخلة ثم ما لبث أن عاد.

لم يغب كثيرا عنه لكن هذه الدقائق كانت أشبه بدهر طويل. الأرض تحته ضباب والسماء فوقه قبة مقفلة الأبواب. يخشى الله ألا يسمع دعاءه لأنه لم يحبه فى خلقه.

وعاد الصبى وخلفه أبوه ومعهم تلك الجريدة التى تحولت إلى عصا طويلة ربط فيها جابر وأبوه قضيبا من الحديد المحمى بالنار كان أشبه بالجمر ورفعوه إلى فوق وتسلق الرجل النخلة الصغيرة من الناحية التى يمكن أن يفاجئ منها عدوه.. من حيث لا تراه

الأفعى ثم وضع على جسمها القضيب المحمى وضغط فأخذت تتلوى لتلف نفسها تماما حول القضيب الساخن.

وعندئـذ رمى الحداد سـلاحه بكل ما عليه إلـى الأرض حيث أجهز عليها الصبيان..

لكنه صعد.. ونظر إلى السـماء فإذا بهـا ذات ضوء جديد كأنها اسـتنارت بنور الفجر، والأرض تحته ليـس عليها ضباب، وكأن النخلة قصيرة جدا يرى تحتها كل شيء.

غيـر أنه صعد حتـى وقف على العراجين وأخـذ يهزها بقدمه فتساقط الثمر الناضج وهو يقول لمن على الأرض:

– «كلوا ولا تخافوا.. كلوا.. ولا تخافوا».

* * *

المخدَع

كتب إليها بعد تسلمه عمله فى هذا البندر الصغير يصف لها الليلة الأولى من إقامته فى هذا البلد الواقع فى أطراف الدلتا على حدود الصحراء.

«مركز» عادى أو أقل من العادى إلى حد ما. يقع على شريط السكة الحديد شمالى «مديرية التحرير».

وكان فرحا بترقيته: ولم تكن فرحته إلا للمعنى الأدبى الذى حصل عليه ولأن زوجته ستصبح هى الأخرى منغمسة فى هذا الشعور. فهو سيصبح ناظر المدرسة الإعدادية فى هذا المركز ولعله أصغر ناظر فى الجيل.. جيل زملائه وخلانه. وشعر أنه نال ثلاثة أشياء فى وقت واحد: رياسة، ونقلة، ثم.. زواج.

كان القطار يتلكأ به عبر الصحراء بطريقة غير مبالية. قطار ركاب من المفروض أن يصل به قبل حلول المساء حيث يقضى الليلة الأولى التى كتب إليها بتفاصيل وقائعها الطريفة. ولذ له أن يشاهد هذا الطريق الغريب عنه الذى لم يعبره قبل ذلك مرة واحدة. بمحطاته المتقاربة وأسمائها الغريبة. وعند وصول القطار إلى محطة.. (إنه لم يعد يذكر اسمها) فقد وقف القطار فيها ثم غادرها ثم وقف على بعد بضع عشرات من الأمتار عندما تلقى

ناظـر المحطة إشـارة بحجز قطار الركاب هـذا لأن إحدى عربات قطـار بضاعة جنحت على الخـط.. الطريق المفرد.. فتأوه كثير من الـركاب وتمطى بعضهم وقال أحد الذين تعودوا مثل هذه الحوادث وهو يتخذ من حائط العربة مسندا لرأسه: «يحيا النوم لثانى يوم».

كان الجو خريفا والنهار قصير الطول والشـمس تبدو من زجاج النافـذة المقفل نحو الغرب على مسـيرة نصف سـاعة من رحلتها اليومية. فشـغله حسـن المنظر عن حقيقة الورطـة. لم ير فى هذا الذى حدث إلا شـيئا طريفا. مفاجأة ذات هزة حلوة تبعث الضحك والخوف مثل تلك التى تعمل فى الحفلات بين الأصدقاء. فتشـاغل بمنظر التلال والخيوط الذهبية التى فصلتها الشمس أثوابا محبوكة علـى الكثبان التى تغنى بها شـعراء البادية قديمـا وربطوا بينها وبين أجمل ما فى أجسام النساء.

وأخذ يتحسـس جيوبه فى حركة نصف واعية. حركة الجالس الـذى تصلبت عضلاتـه فهو يريد أن ينشـطها. فأخرج سـيجارة وأشعلها ثم.. محفظته الجلدية وجعل يفحص أوراقه القديمة التى فيها. فوجد عنوانا لشخص التقى به فى الترام تعرف عليه وتبادلا عهودا بالتزاور. ثم نسـى كل عهده. وإيصالا من أحد التجار بمبلغ كان دينا عليه. وصورة لأخيه. وصورة لصديقه.. ثم صورة لعروسـه هذه التى لم تزف إليه بعد فابتسـم.. «زوجة الناظر.. ما أعظم أن يزورها زوجات المدرسين فى كل ليلة جمعة ويراها وهى تودعهن

عند السلم وتقف لتثرثر على طريقة النساء وقد أخفت بمهارة كبرياء زوجة من هو رئيس لأزواجهن!!».

وشعر أنه يريد أن يقهقه من دغدغة هذا الخاطر له. وشعاع غربى يقع على كتفه الممسكة بالصورة فتشعشت به كأن هالة علوية وقعت على وجهها الحلو. وخيل إليه أنها تبتسم له. وتذكر أغنية كان يحبها. كانت تصل إليه من راديو مجهول على بعد ساحق فلا يصل الصوت إليه إلا وقد فقد كل حدة واحتفظ فقط بشحنة الهمس وسره وسحره. ومن خلال شفتى الصورة خيل إليه أنه يسمع الصوت.. فكأنها تغنى له.

ولم يلبث أن وضع كل هذا وأمسك بورقة أخرى. فيها عنوان.. عنوان لوكاندة صغيرة وحيدة لرجل يونانى فى المركز الذى يقصده أخذه من صديق عن طريق صديق هو من أهل المركز. وأخذ يقرأ العنوان «لوكاندة الهناء».. «ما أجمل حجرة بسرير واحد تطل على مئذنة المسجد حيث يسمع الصوت الندى لمؤذن كفيف».

واستراح لهذه الخواطر. لم يعد يذكر شيئا عن القطار أهو ثابت أو متحرك. لكنه جعل يستعرض ما يعلم عن المكان الذى هو فى الطريق إليه. وكل ما اختزن عن عروسه الجميلة.

ولاحت نظرة الكثبان فرأى قرص الشمس فى موكبها الذهبى يحث الخطا بين كثيبين ثم ما لبثت أن غابت. فمدد أحد الركاب ساقيه وتأوه ونظر من خلال الزجاج إلى النهار الذى ولى، وهمس لنفسه كأنه فقد الأمل فى تحرك القطار ثانيا: «ليلة عتمة» لكن هذا

التشـاؤم أضحك «الناظر» الذى أخذ يختلـس إليه النظر من خلال أفراح نفسه: «أليس جائز أن يكون هذا الشاب مدرسا.. فى مدرسة إعدادية.. وربما تحت نظارتى» وهز كتفه: «كله جائز»..

لكن الوقت يمر والقطار محجوز. فجلس يتأمل العالم الخارجى بعدما شـبع من عالمه هو.. عالمه الداخلى العذب الملىء بالغموض الساحر. ففتـح النافذة وشـم رائحـة الصحراء. واسـتمع لصمت الليـل ممزوجا بأغنية ريفية من راكب العربـة الأخيرة. ولم يكن فى اسـتطاعة شـىء ما أن يدخل على نفسه التعاسـة. كان لابد أن تفـرغ أولا من حبورها فالملآن لا يملأ. ولم يكن هناك موضع لقطرة جديدة. كل هذا كتب به إليها فى الرسـالة الأولى عقب تعرفه على ما حوله. فجلس يخط إليها رسالته كأنه يهمس إليها بالحديث.

«وعندما صفر القطار يا حبيبتى وتحرك شعر الركاب كأنها هزة البعث.. بعث من غير حساب كأننا مدعوون جميعا لدخول الجنة».

* * *

وعندما وصل إلى المحطة المطلوبة كان الوقت قد قارب منتصف الليل. وهبط التـل العالى الذى تقع المحطة عليه آخذا طريقه ككل غريب. وأحس باللهفة والغمـوض والخوف والفرح. ورائحة بقايا «سـوق» تفوح من الشـارع الصامـت. عطن وزفـارة ورائحة طيور. وأشجار وحشية تلقى بظل متحرك مع نسيم أكتوبر.

ورأى هناك على مسيرة بضع عشرات من الأمتار أحد رجال الشرطة يمشى الهوينا أمام مكتب البريد المغلق فألقى عليه تحية المساء وسأله عن «لوكاندة الهناء».

– لوكاندة الهناء؟!.. لوكاندة إيه؟!..

وكان الشرطى ممسكا بغضروف أذنه.. أذن نفسه بالطريقة التى تدل على حرص السامع على الاستماع. فقال «الناظر»:

– نعم.. نعم.. لوكاندة الهناء. هل هناك أحسن منها؟!

وعند ذلك قهقه الشرطى. ضحكة طليقة فى الليل النائم. ضحكة أخرجت الرجل من عميق أحلامه وسمحت للخوف أن يدب إلى قلبه. فوقف يتهته.. يقول ولا يقول.. وعندئذ شرح له الشرطى حقيقة الموقف. فقد كان هناك حقيقة لوكاندة بهذا الاسم. حجرتان من شقة إغريقى عازب توفاه الله فى الأسبوع الماضى. وليس فى البلد سوى المساكن.

ساد الصمت.. أشبه بالذى يغطى الوجوه وهى تنتظر كلمة «آلو» على الطرف الآخر من التليفون. نطق بعده الناظر سائلا:

– وأين يمكن أن أنام؟!

تلعثم الشرطى لأنه أصبح فى موقف حرج. حراسة إنسان وتحقيق الأمان له. رد متلعثما:

– آ.. آى.. ممكن أقول تفضل عندى.

– متشكر.. أظن هذا ليس معقولا.

– آ.. اى.. آ..

– أنا ناظر المدرسة الإعدادية الجديدة.

فتهلل وجه الشــرطى: «لــو رأيته يا حبيبتى وهــو واقف فى النــور الخافت ووراءه الباب المصمت المتيــن لمكتب البريد. كان على وشــك أن يحرك بندقيته ليؤدى بها تحية عسكرية لى عندما علم أنى ناظر المدرســة الإعدادية الجديدة التى فيها ابنه. وأخرج علبة الســجائر وأشعل لى سيجارة باحترام حتى كاد يحرق أنامله ثم أخذنى وســار بى. أمســك بذراعى كأنه يخاف على من مجهول وسرنا».

صعدا معا المرتفع الذى تقع عليه محطة السكة الحديد وسارا تطقطق أحذيتهم على بلاط الأسمنت الكبير. وعند المبنى المكون من حجرتين مظلمتين ومخزن دق الشــرطى بحذائه وكعب بندقيته على الباب وهو يهتف باسم رجل. استيقظ من بين أكداس البضائع وخرج خائفا. فأخذ الشرطى منه مفتاح حجرة الاستراحة وشمعة وذهبا إليها.

وكان رقاد الناظر حتى الصباح هناك على دكة من الخشــب وفى النافذة المغلقة كانت الشــمعة تذوب.. وحيدة فى الحجرة العالية العارية الأرضية. وفى الخارج نســيم أرعن يلعب بذوائب شجرة: «كنت مستلقيا على ظهرى سعيدا بهذه الوحدة والتجربة والغموض أفكر فيك يا سوسن. ويخيل إلى أنك ستطرقين الباب كطيف إلهى. ثــم تقرقرين بضحكة حيية لكنها تســقى قلبــى.. وكان هناك فأر

يقرض شـيئا ما خارج الحجرة كمبرد لا يعرف الملل. وعند الفجر اسـتيقظت على الصوت الندى مـن المئذنة القريبة فقمت أنظر إلى النهار من النافذة».

* * *

علـى أن موعد الزفاف لم يكن باقيا عليه سـوى أسـبوعين بعد تسلمه عمله كناظر للمدرسة.

وعند مدخل البلـدة كانت غابة من النخيل يفصلها الطريق الزراعى عن الحقول والمستشـفى. وعلى مقربة من غابة النخيل فضاء يلعب فيه شبان الحى كرة القدم ثم منزل من طبقة واحدة وأربع حجرات وحديقة برية زرع فيها كل شىء كما اتفق.. لوف ولبلاب وخروع ودفلى وأشجار ليمون ليس فيها إلا الشوك. وجرجير تفوح راحته العطرية الحريفة فى مدخل البيـت كعلامة لا تتغير: «لو رأيت الجنة الصغيرة يا عزيزتى. ستطل حجرة نومنا على شـجرة الدفلى ذات الأزهار الوردية والأوراق التى تشـبه السيف. عيب المنزل أن الفضاء الذى يحيط به فضاء مباح.. أجرتـه بعـد يومين نزلتهما ضيفـا على أحد المدرسـين العزاب. وقد وجدت لوحا من الزجاج مكسـورا من الكرة التى ارتطمت بالنافذة ذات يوم وأنا نائم. لكن لا بأس. فعندما يعلمون أن الناظر هو الذى سكن هذا البيت سيحتشمون لأن فيهم تلاميذ كثيرين. لابد من حضور الأثاث قبل

الزفاف ببضعة أيام لأشعر أنك معى ولو كنت وحيدا».

* * *

وعندما وصل إلى المدرسة بعد سكنه بيومين أو ثلاثة كان اللقاء العادى بينه وبين المدرسين. وتحيات الصباح. وفى الفسح والدقائق الخمس كان هناك على التوالى هذه الكلمات:

قال له الأستاذ عبد الوهاب مدرس اللغة العربية:

– هل أنت مسرور من مسكنك الجديد يا حضرة الناظر؟

– فرد وهو يوقع بعض الأوراق وبشرود:

– جدا..

فهمهم الأستاذ:

– الحمد لله..

وسأله الأستاذ بسطا مدرس الرياضة:

– كيف حال البيت الجديد يا حضرة الناظر؟

فرد عليه وهو يراجع جدول الحصص العام:

– رضا.

فهمهم الأستاذ:

– الرضا من الرضا.

ثم سأله الأستاذ الطويل مدرس التاريخ والجغرافيا:

– هل أعجبك جو المسكن يا حضرة الناظر؟!

فرد عليه وعيناه معلقتان بالشرارة والنار فى ولاعة السجائر:

– جنة.

فهمهم الأستاذ:

– تنقصها الحورية.. لكن..آ.. غدا تأتى.

ثم ضحك فى ارتباك وخجل.

وها هى ذى الحورية قد أتت. ومر على الزواج أسبوع. يجلسان فى الغرفة القبلية التى فيها المخدع ويطفئان النور ما عدا المصباح المعلق فى الصالة الذى يبعث إليها بشعاع هادئ. ويتحدثان ويلقيان بنظرهما من خلال أغصان الحديقة البرية إلى غابة النخيل نحو الجنوب. وقد بدت رقعة الأرض الفضاء غير المحدودة المهملة التى يستغلها فى لعب كرة القدم.. بدت كميدان معركة عراه الصمت. كأنما امتص النخيل والحقول بقية الضجيج. وكان الزوجان يتحدثان عما ينبغى أن يقدم غدا (الخميس) للضيوف المهنئين وبعض زوجات المدرسين سيحضرون للتهنئة. وستفرجهن على الهدايا والألطاف وكل النفائس.. تلك السيدة.. زوجة الناظر.

وتخيلها وهى تودعهن عند الباب وقد وقفت تخفى كبرياء لم تشب بعد عن الطوق وتعد برد الزيارة.

وكان ذلك فعلا فى المساء التالى. وانصرف بعض الضيوف. ثم دخلت العروس على زوجها. جلست على كرسى مرآة الزينة تعيد تسريح شعرها ولكن وجهها كان متغيرا. يبدو عليها ما يمكن أن يسمى تعبا أو قلقا أو خوفا. تكثر من التلفت والحديث. وتشعل النور فى كل مكان. أما هو فقد كان ممددا فى الفراش مرهفا سمعه

إلى صوت الهواء فى الخارج وأزيز محرك لإحدى السيارات التى ترحل فى آخر السهرة. وقالت العروس بلهفة:

– عبده.

– نعم.

– إن زوجة الأستاذ الطويل قالت لى كلاما ضايقنى.

فرد مداعبا:

– وأنت عروسة. له الويل هذا المدرس من حضرة الناظر ما دامت (حرمه) قد ضايقت (عقيلة) الناظر.

وأخذ يقهقه. لكن المشكلة بدت أعمق مما تصور هو فقد همست سوسن وهى تلوذ بأحضانه قائلة: «إن المسكن هو البيت الوحيد الذى بنى فى هذه الأرض الفضاء. ولم تكن هذه الأرض سوى مستنقع ردم بركام مقبرة قديمة.. موضعها عند الضريح.. آه.. هل رأيت.. لابد من الانتقال إلى سكن آخر»..

فأخذها فى حضنه كأنها طفلة. وأخذ يقول بهدوء كصوت الرقية.

– علمت هذا قبلك. نعم.. كما تقولين.. لم يسكنه أحد قبلنا.. لكن صاحبه سكنه مدة من الزمن.. نعم.. كلنا نلهو ولا ندرى ماذا تحت أقدامنا. وهؤلاء الشبان الذين يلعبون الكرة يدوسون على.. ماذا أقول؟!. ذلك واضح.. لكن إن شجرة الدفلى التى تحت نافذتنا أزهارها الغنية فى لون الورد. هذا ما أراه فقط لا غير.. ولاعبو

الكرة كل أصيل هناك لا يذكـرون إلا إصابة (الهدف).. آه.. يجب أن تفهمى.. فقد أثار سـؤال المدرسين شـكوكى.. لكن.. إن مخدع العروس فى هذا البيت أشـبه بحفـلات الانتصار بعد الحرب.. إن الحياة تلعب لعبة الشمعة التى كنا نلعبها فى ليالى رمضان.. فحين تنتهى الشمعة نأخذ ذوبها ونعيد صبها ونضع لها شريطا جديدا.. ونشـعلها.. نأخذ الحى من الميت والنـور من الظلام.. هكذا هى.. ماذا يمكـن أن يحدث حين يكمن المحاربون فى المقابر المهجورة ويطلقـون النار على قافلـة تعبر الطريق.. لا تخافـى.. فغدا أزرع لك شـجرة برتقال فى هذه الحديقة وسـأبخر أشجار الليمون. هل رفضت الحديقة أن تخـرج نباتها من أجل الموتى.. بتاتا.. وكثير من العشـاق يلوذون بالمقابر.. دفعة الحياة تكتسـح كل سد.. على أننا لن نقترف ذنبا.. نحن نزرع الحياة فى رقعة بعيدة.. هل كانت هذه البقعـة تحلم بأن تكون مخدع عروس.. لكـن.. لماذا نغالى.. إنها أخرجت الأزهار والفاكهة ولعب الشـبان فيها الكرة وسجلوا هزائم وانتصارات.. هل غلبك النوم؟! تبتسمين؟!. حسنا.. شفتاك فى لون براعم الورد.. إن الحياة تلعب لعبة الشـمعة. كما كنا نفعل بشـموع رمضـان.. نعيد صبها وهى تعيد صبنـا.. الحى من الميت والنور من الظلام.. هذه هى الطمأنينة قد بدت عليك.. هل تسمعين غناء هذا الطائر.. أهو فى النخيل أو على شجرة التوت.. خمنى؟!.

همست:

– على شـجرة التوت.. آه.. لا.. أقرب.. إنه على إحدى أشجار الحديقة.. لا.. أقرب.. أسمعه هنا.

– فى الحجرة؟!

– لا.. هنا.. هنا..

وأشارت إلى صدرها..

واحتضنها. وبدت تتأكد أن الحياة أقوى من أن يعترضها شىء. حتـى هذه القوة الجبارة التى يكمن الخوف من سـطوتها فى نفس كل إنسان وطائر.

* * *

لعبة كل يوم

هذه الأوراق تذكره بدنيا قديمة..؟!. لا.. دنيا جديدة يعيشـــها بكل أبعادها.. إحساسه بها يأخذه من كل جانب.

وعندما وقعت عينه على ورقة (الشـــايب) خفق قلبه.. فهو الآن راجع من هناك.. ترك الرجل الذى نمت لحيته أخيرا واختلط فيها البياض بالسواد حتى صارت رمادية – فى مثل هذه الصورة الواقعة بين ثلاث ورقات أخرى ليس بينها (ولد) وزوجته تكركر بالضحك وتنظر إلى بطنها المتكور. خمن بحواشـــى إحساسه أنها متفائلة.. آه فى أوراقها (ولد) وربما فى بطنها (ولد) أما هو فإنه يرى العقدة بين العينين فى الصورة على هذه الورقة ويتذكر صورة الرجل الذى كان فى زيارته.

والأوراق تمـــر بين يديه وهى توزع.. زوجته توزع.. وهو يرمى ولا يأخذ أو يرمى ويأخذ.. غير أن نكهة هذا العالم الصامت المائج بالأرقام والصور ملأت حواســـه. فليس من الضرورى لأى عالم لكى يشـــغلنا – أن تملأه أشـــياء حية لأننا قادرون – كناس – أن نضفى عليه الحياة من خارجه كشأن الصحراء. وكشأن هذه الأوراق.. هذه «الكوتشـــينة» إنه يحس إزاء كل ورقة بمعنى شخصى ومعنى عام. هـــذه الأوراق التى ربطها الناس بالحظ والمهارة أخذ بعض أفرادها

صفة شـخصية تكاد تكون عالمية.. فيها السـعد والنحس لكنه هو شخصيا يشم رائحة كل ورقة. كأنما قطفها من أشجار الحياة.

ورنـت ضحكة زوجتـه وصفقت عندما أحرقـت «ولدا» كان فى يديه.. سـبقته بجمع ما على المنضدة بولـد كان معها. وعند ذلك أهوى به ورماه ونظر إليه نظرة إشفاق.. حملقت إليه امرأته وقالت له: «انظر.. انظر ماذا فعلت به..».

لكنه وضع ضحكته وبدأ يوزع.. نظر إلى هذه الورقة وكأنها فوق مستوى الحوادث: «ولد.. شاب انهزم.. لا بأس.. كل شىء يتحمله الشـاب حتى الهزيمة السـاحقة».. وكانت الصورة تنظر إليه على المنضدة كأنها تؤمن على ما يقـول بتلك النظرة المحددة المنبعثة من العينين والأنف المستقيم الذى يدل على الصلابة.

وجـاء صـوت زوجته وكأنمـا أدركـه الفتور: «العـب.. مالك سـرحان». وكان يتذكر بهذا الأنف أنف شاب آخر. أكبر منا سنا، منهدس مبان يعمل فى أسوان منذ البدء فى بناء «السد العالى».. لا يـراه أحد.. أوحش الجميع ولكن ظروف العمل قد تقص من أطراف الوفاء لأنها تأكل كل فرصة.. حتى الأعياد لم يعودوا يرونه فيها.

وكانـت أول ورقـة نزلت إلى جانب «الولـد» على المنضدة هى «الشـايب» مرة أخـرى. وضحكت الزوجة: «وهذا أبـوه» ولم تكن تـدرى وقع هذه الكلمة على قلبه. فمع هذا الابن وهذا الأب سـهر زوجها ليالى لا تسـتطيع هى أن تدرك عمقهـا. فهما يلعبان لعبة

اثنين يتسـليان. يجعـلان من هـذه الأوراق دواء للملل. ولم تدخل حرب الأعصاب فى اللعبة بينهما قط. أما اللعبة القديمة فقد كانت مبنية على حـرب الأعصاب، وهو شـخصيا كان الضحية الممتازة لهذه اللعبة.

ففى مسـاء كل خميس كانـت تأتى لزيارتهـم عمتهم «مفيدة» ومعهـا «عنايات».. لمـاذا كان يرى فى صورتهـا ملامح من صورة «البنـت» فى أوراق اللعب.. كان ذلك قبل الآن.. ذقن مدبب وعينان كحيلتان ولونها الزاهى ووجهها الطيب المائل إلى الشـحوب يكاد يكون وجه راهبة.

كان يتخيـل هذا قبلا.. أيام زمان.. أيـام كانت زيارات عمتهم «مفيدة» تأتى بنظام شبه ثابت حتى كاد يتحول إلى ظاهرة أسبوعية.

وفى هذه الليلة بالذات لا يخرج والده إلى «المقهى» للسـهر مع أصدقائه بخلاف معظم الناس الذين يفضلون السـهر خارج المنزل فى الليالى التى تسبق الإجازات.

وتطوف بالبيت حركة غير عادية أشـبه بشعور الإنسان بالميل إلى الرقص، كل شىء فيه فرح منطلق يكاد يقفز كعصفور.

وأتـاه صوت زوجتـه عندما وصلت أفكاره إلى هـذا الحد تقول له: «هيه.. عشرة طيبة» وتنهد. وشم رائحة الورق.. شكلها سعيد يوحى بالطمأنينة حقيقة مثل صاح ملىء بكعك العيد.. إنه يشم من هذه الورقة رائحـة الزبدة والفانيليا.. إنهـا على كل حال ذكرته

باجتماع الأسرة. أبوه جالس فى جلباب أبيض بعوده المتوسط ولونه الأسمر، على ملامحه بوادر سرور وبقايا «شقاوة» أيام الشباب.

كانوا يجلسون على الأرض المفروشة بالكليم فى حجرة إضافية سموها حجرة الشعب فيها سرير تقليدى موروث عن الأجداد كان الأب يشم فيه روائح الذين ذهبوا عن الدنيا وصوان ملابس بمرايا ظاهرة تعكس هذه الجمع.

وبعد العشاء يلجأون جميعا إلى هذه الحجرة بلا استثناء فيدخل الأب ويتخذ مكانه المعروف فى الزاوية التى يصنعها الصوان مع الحائط. كتفه يلمس المرآة وإلى ناحية منه زوجته وإلى الناحية الأخرى شقيقته. ثم يجلس الباقون كما يتفق. ثلاثة من البنين وبنتان.. البنين.. أكبرهم «سمير» ذلك المهندس وأصغرهم هو.. ذلك الذى يلاعب الآن زوجته.. وحدهما بلا أولاد. إلا ذلك الجنين الذى كور بطنها وأسعد قلبها وجعلها تقبل كل ولد من أولاد «الكوتشينة» موهمة أنها فرحة به كلعبة. وهى فى الحقيقة تعبر عن أمنية قلبها. غير أن «عنايات» كثيرا ما كانت تتعمد الجلوس إلى جانب سمير فيراقب الأب ظهورها بذكاء وصمت.

ما كان أجمله فى الجلباب الأبيض حين يتربع ويأخذ نفسا عميقا ويبدأ فى توزيع أوراق اللعب فى تلك اللعبة التى أسرت قلوبهم جميعا وشحنتهم بالذكريات «لعبة الشايب» تلك التى كان

الحياء والغش وربما الأعمال غير المشـروعة فى قانون اللعب بين الضحـكات أو النكت أو الصمت أو إسـبال الجفـون أو الحملقة أو إشارات الإرشاد الخفية التى تعتبر بمثابة خيانة.

لم يكن فى وجه والده هذه التجاعيد ولم تكن له لحية نامية فى ذلـك الوقت ولم تكن عليه ملامح «الشـايب» الذى يراه الآن بعد أن رمت زوجته بورقة على المنضدة.

أمـا هو فقد كان هو الحائط الواطى الذى يتسـلقه الجميع.. إنه يعترف بينه وبين نفسه أنه غير ماهر فى لعب الورق. والأدهى من كل هذا أنه غير ماهر فى تزييف إحساسـه ومشاعره ويبدو أن ذلك ضرورى فى كل لعبة حتى لعبة الحياة نفسها.

فعندما يجتمعون على شـكل دائرة كثيـرا ما كان يجلس جنب سمير.. فيكون هو فى ناحية وعنايات فى الناحية الأخرى.

وتقسم الأوراق بالتسـاوى وفيها «شايب» واحد ويخرج كل فرد الأوراق المكررة فى حصته بحيث يصبح مطلوبا منه أن يحصل على ورقـة جديدة من جاره بالاقتراع.. ظهر ورق جاره إليه ويسـحب هو ورقة فإذا كان معه زميلة لها تخفف من ورقة جديدة. وتجرى العملية هكذا باسـتمرار. كل يأخذ ورقة جـاره فإذا كان لها نظير عنده أوشـك على البراءة وإلا تخلف حتـى لا يبقى من المجموعة سـوى اثنين مع أحدهما «الشـايب» الملعون والأخـرى بها نظير ملاعبه تحمل العدد المعروف من واحد إلى عشرة.

ولمــن يبقى معه «الشــايب» أخيرا «علقة» مكونــة من ضربات بحزام الأب وينطق بالحكم أيضا أوراق «الكوتشــينة» حين يسحب المهزوم ورقة بالقرعة تحمل رقما بين واحد إلى عشــرة هو نفســه عدد الضربات التى سيأخذها بالحزام على رجله أو يده من اللاعبين جميعا.. قد تكون عشــرة فى ثمانية لاعبين بثمانين ضربة لا تقبل التخفيض.

وســألته الزوجة وهى تتمطى وتنهض فتحضر كوبين من عصير الليمون:

«هل تعرف لعبة الشايب».

– أعرفها.. لكن لعبها يستدعى عددا..

– عندمــا نخلف أربعــة أولاد.. أعتقد أننا نكــون قادرين على لعبها..

وقرقرت بالضحك وخرجت من الحجرة. فنظر إلى ظهرها الذى قوســه الحمل. وأخذ أوراق اللعب وجعل يبعث بها بلا نظام عبث من يطوف بأرض يعرفها لكنه – فقط – يمضى فيها كيفما اتفق.

«الدوه الطيب.. الآس.. العشــرة الطيبــة.. ذات العلامات التى تشبه الزهرة.. آه..».

وذكرته الأخيرة تلك العشرة السوداء بما حدث له ذات ليلة وهم يلعبون.. تذكر فاحتقر نفســه. قال رجل اليوم فيه لغلام الماضى:

«إن الهزيمة لا تكون فادحة أبدا إلا بشرط واحد هو أن يبكى المهزوم».

كان أبوه جالسا فى جلبابه الأبيض فى الركن بين الحائط وصوان الملابس وكان هو قد سقط فى اللعب ثلاث مرات فى هذه الليلة وحدها. وكان أبوه يضحك لكن ضحكه يوارى أسفا. وفى المرات الثلاث الأولى بلغ مجموع ما أخذه سبعين ضربة بالحزام بعضها على كفيه وبعضها على قدميه.

وعندما جاء دور الدور الرابع كان الثلاثة الباقون فى المجموعة «سمير» فى الوسط وهو إلى شمال سمير و «عنايات» إلى يمين «سمير».

ودار الصراع.. ثلاثة.. رجلان وامرأة.. وكانت عيون المجموعة تتابع المعركة بفضول ودقة ولذة.. نظر سمير إلى عنايات نظرة ذات معنى.. نظرة تحمل معنى الحب والأمر أن تخرجه هو من المعمعة وتبقى مع شقيقه وجها لوجه. ورأى الأب معانى النظرات فى المرأة. وشعرت العمة بعمق العلاقة بين الاثنين غير أنها فى سبيل أن تخصب التزدهر لا بأس عندها من أن يسخروا من الآخر.. أليس هذا لعبا؟!. لكنها لم تسأل نفسها عن الفرق بين ما يحدث فى لعبة «الشايب» وبين ما يحدث فى الحياة، أليست كل قصة حب معقدة ذات رجل وامرأتين أو أمرأة ورجلين.

ونظر الشقيق إلى سمير وعنايات عندما كان سمير يأخذ ورقة

بالقرعة من أوراقها هى، لم يفهم الشـقيق شيئا مما يدور لكنه رأى نظرة جانبية تتجه إلى ورقة حاولت أن تجعلها منفصلة عن المجموع ونظر إليها سمير وتردد. ألقى نظرة خاطفة على العيون والأفواه كان المسـبل منها يفهم والصامت منها يتكلم. كان الجميع يفهمون ماذا سيحدث. غير أن الشقيق تمنى أن يكون مع الفتاة وجها لوجه فهذا أفضل عنده مائة مرة من مصارعة أخيه.. هكذا قدر.

ونحو النظرة امتدت يد «سـمير» وأخـذ الورقة وهلل فقد كانت ثمانيـة ولها نظير عنده. وعندئذ رمى ورقتين خارج اللعبة وأعطى الثالثة لشـقيقه كنظام اللعب فأصبح مع الشقيق ثلاث ورقات ليس فيها «الشايب» ومع الفتاة ثلاث ورقات غير «الشايب».

وعندما بدأ اللعب انتقل الشايب بغمزة عين من يد الفتاة إلى يده هو. إنه يذكر ذلك.. لكن أى أثر لم يبد عليها..

لذلـك حاول هـو ضبط أعصابه، وبدأت تسـحب منـه. وكانت مغمضـة تقريبـا لا يرى ماذا فـى عينيها. صراع كان بين شـخص ونفسـه وأخيرا.. صدرت صيحة فرح تعقبهـا ضحكة عالية وقفزة كانت من عنايات حين أصبح «الشايب» وحده فى يد الشاب.

وضج الجميع بالضحك. تلفت الشاب الصغير كالمذعور ينظر فى عيون من حوله. كان صغار السن يتغامزون وسمير يبتسم فى صمت وفى عينى الأب شفقة وضيق.

وقالت الأم:

– طول عمرك خايب.. حتى الفتاة تغلبك..

فقال سمير:

– النصر السهل تناله الفتيات باستمرار يا ماما..

وقال الأب:

– كل من يرحمه منكم فى الضرب يكون قليل الأدب.. يجب أن يتعلم..

ولعل الأب ندم على ما قاله لكن لم يكن هناك مجال لسحب كلمته أو تعديلها.

وبسطت أوراق الكوتشينة أمامه مقلوبة هكذا.. كما يعبث بها الآن.. ظهرها جميعا له كظهر من كانوا يلعبون معه. كأنها المستقبل.. تعرف أسماؤها بلا حواء وآدم.. ومد يده بارتباك. كانت ضحكات تهمس وضحكات تقرقر وعين والده تنظر إليه كأنه يرشده نحو ما لا يعرف هو نفسه. وسحب ورقة ثم تركها قبل أن يكشفها.. وضحكوا.. وسحب ورقة ثم أخرى.. وكشفها.. وكانت العشرة السوداء هذه ذات الأزهار الحزينة القاتمة. وضج الجميع بالضحك خصوصا عندما مدت عنايات يدها إلى الورقة التى تراجع عنها فإذا بها «آس» يعنى ضربة واحدة من كل واحد لكن الآن لابد أن ينال ثمانين ضربة..

أحس ليلتها بالخزى.. هل فى اللعب سلوك مثل الحياة. لماذا كان ذليلا هكذا؟! وألقى نظرة على «الشايب» وفجأة وبلا تدبير بصق على وجهه.

وكانت هذه الحركة مولدا جديدا لضحكات أخرى. وبدأوا فى تنفيذ الحكم. بدأ الأب.. كان حانقا.. كان يود أن يمنح هذا الولد شخصية متحركة يستطيع بها أن يقرأ وجوه الناس ويلف ويدور. الذين هم أصغر سنا منه لم ينهزموا هذه الهزائم. أربع مرات متواليات؟!

وبدأ الأب يضرب.. واحد.. اتنين.. آه.. تلاته.. أربعه..

ضرب شديد لكن عز عليه أن يتألم فقد كان مقدر أن أحدا غير أبيه يفعل هذا مثل سوسو الصغير مثلا الذى يريد أن ينتقم لضربه عند تعليم الحساب. لكن من الأب؟! وصمت.

ومد رجله اليمنى. ثم رجله اليسرى. وعندما جاء دور «سمير» مد رجله فى وجهه حتى كادت تلمس أنفه فانتقم. وجاء دورها.. دور عنايات تلك التى أبعدت سمير عن المعركة ودخلتها بدلا منه ثم تغلبت عليه. وفكر.. هل يمد لها يده. أو يمد لها رجله.. لكنه فرك كفا بكف ومد يده اليمنى.

أمسكت عنايات بالحزام الجلدى ورنت إليه. وكانت نظرتها شفيقة متكبرة كأنها تقول: «كفى ما أخذته بسببى» ولكنه عز عليه فقال مستعجلا: «اضربينى.. اضربينى.. أنا راجل اضربى».

فأخذت تضرب برفق شديد.. أحس كأن ضربها نوع مما يسمى «سد خانة».. وعندما انتهى الضرب وهمست بعدد عشرة لم يدر لماذا انخرط فى البكاء. بكى كأنما بعيون جميع المضطهدين.. وسمع همسا من الجميع:

– اخص.. اخص.. اخص..

فلجأ إلى غرفة أخرى بينما استمرت اللعبة دائرة.

* * *

ودخلت الزوجة بكوبين من عصير الليمون. كان على وجهه أثر ذكرى.. لكنها قالت بصوت يحمل إغراء متعمدا:

– تقول عندما تصبح فى أسرة عددها ستة ستلعب لعبة «الشايب».

– نحن نلعبها كل يوم..

فردت مندهشة:

– كيف..

– فى كل مكان. ليس بأوراق اللعب وحدها.. فقد تعلمت منها ذات ليلة أن البكاء من الهزيمة أعظم انتصار يأخذه الخصم..

لم يكن يشغل بال الزوجة التى قالت:

– وما رأيك فى عصير الليمون. حلو.؟!

– جدا..

وكان وجهه على ورقة الشائب فى هذه اللحظة..

– إننى لم أر أبى منذ يومين.. لقد أوحشنى.. إننى أحبه.. والمهندس سمير لم يحضر من أسوان منذ سنتين.. أبوه يسأل عنه خصوصا بعدما لزم فراش الشيخوخة.. لو كنت رأيته يا سناء وهو

يلعب معنا لعبة الشـــايب أقصد أبى.. كان فى منتهى القوة.. أقصد الخلقية.. وهو الآن يدعو لى.. منذ ماتت أمى يا ســـناء وأبى يهضم الحيـــاة.. هه.. عصير الليمون حلو ومر.. لكـــن.. هل يا ترى صمم ســـمير المهندس هو وعنايات زوجته علـــى ألا ينجبا إلا هذا الولد الوحيد..؟! أنا موافق على تحديد النســـل.. مع مخالفتى فى نجاح تربية الولد الوحيد.

كانت الزوجة تنظر إليه باســـتغراب.. وكان هو كمن سكر تماما فخلط بين الأزمنة الثلاثة يتكلم عن الحاضر والماضى والمســـتقبل. وعيناه على صورة الشايب وفى حدقتيهما حنان كثير..

* * *

العش

كانت تقطع الطريق فى الظلام وحدها بعد أن تفرق عنها النسوة عائدة إلى دارها فى الطرف الجنوبى من القرية فى ليلة شتاء دفيئة ضبابها شفاف والسماء تلمع فيها النجوم.

ولم يكن بينها وبين الدار مشى طويل.. متلفعة بشال من القطيفة أسود بهداب سخى غطى ظهرها أهدته إليها عروس من قرية مجاورة فى ليلة الدخلة.

ومرت على المسجد الهاجع.. على بابه المعقود على شكل قوس مهابة أدخلت على نفسها خوفا.

فقد ذكرت فى ماضيها أشياء لا تحصى. منها ما هو خاص بها ومنها ما هو خاص بالناس..

وحملتها الأفكار إلى منطقة نائية من العمر فلم تشعر بأنها ماشية. بل كانت مثل الطيف.. فى غيبوبة منتبهة تعرف الطريق كطائر أصابه الصياد ولم يسقط فهو يهفو نحو العش.

وهناك على مقربة من الدار بقايا من حطب الذرة مرصوصة على شكل «تل». تحرك بينها شىء فخشخش فجفلت وشعرت بالخوف لكنها ما لبثت أن سمعت نحنة رجل فخرج من كن صنعه لنفسه وحياها تحية المساء.

ولم يكن هو إلا الخفير. شم رائحة عطر فاح منها فطار النوم من عينيه. وكان يعرف أنها هى. ويعرف أيضا أين كانت.. وحين ضغط على يدها مباركا لها لم يكن يقصد إلا شيئا واحدا.. هو أن يكتب الله لها فى أيامها الباقية سترا يمنع العذاب.

ثم سارت وهى تحس خشونة يده ودخل هو إلى كنه فى الحطب وجلس يستنشق رائحة العطر فى كفه الخشنة ويذكر أيامها الخوالى..

* * *

وفتحت هى الباب فإذا الدار صامتة. لم يحيها وقت الدخول إلا أوزة دارت حولها تقطقط وتشد ثوبها بمنقارها. لم تلتفت إليها. كان همها أن تدخل وتستلقى فى الفراش. شد ما تحس بالتعب. كان خمسا وستين سنة صبت أيامها ولياليها فى قالب من الحديد وحملته هى.. هذا هو عمرها. ولو أن جسمها لا يزال طريا لكن الوجه امتلأ بالغضون.

وأقفلت باب القاعة. ورمت شالها الكبير ورقدت بثيابها..

وعندما لمس جسمها الحشية المفروشة على الأرض أحست كأنها فى أرجوحة. كل شىء يميد. وبدت عروق الخشب التى سودها الدخان كأنها قضبان خمسة امتدت فى السقف تمضى إلى نهاية مجهولة.

كان هنـاك إلـى جوارها مكان خلا لأول ليلة. هـو مكان بنتها «تحيـة» التى تنام الليلة فى حضن عريسـها. كان فى قلبها شـرخ يتسـع عند التنهد. فقد أحسـت الليلـة أنها تواجه شـيئا غامضا يناقشها حسابا تأجل عاما بعد عام.

وعلى الرغم من سعادتها بحل مشكلة زواج «تحية» فإنها تحس بمرارة ظاهرة. كانت بنتها على وشـك أن تصبح عانسا خطت نحو الثالثة والثلاثيـن من عمرها وهى فى قرية تتـزوج العذارى فيها كما تؤكل فواكه الموسـم.. أولا بأول.. وليس هناك شىء يتلف. إلا بنتها.. بنت من؟! بنتها هى؟! الخاطبة والماشطة.. التى يعرفها كل الرجـال فى الظلام برائحة العطر. وكل قطعة من ثيابها تحكى قصـة هدية.. من عذراء حسـنة النية أو أخرى بهـا مكروه. أو أم هذه أو تلك أو شـاب أو رجل. فقـد طالما جمعت بين الرءوس بكل الوسائل.

وتقلبت على الحشـية ونظرت إلى خشـب السقف ثم إلى مكان بنتها الخالى. وذكرتها.. اسـتحضرت صورتها هناك بقدرة شديدة الدربة..

وشـعرت بشىء أخير من السـعادة.. لكن التنهد جعلها تحس بالصداع. فقد ظلت فى السـنوات الأخيرة نهبا لقلق ولوم يفترسها بضـرواة. عندما كانت امـرأة تدعو لبنتها «بالعـدل» كانت كأنها توجه إليها اللوم.. كأنها تقول: تعملين لغيرك ولا تعملين لبنتك..

وكانت تحية تسمع مثل هذا الحديث مغلفا فى «دعاء» أو ملفوفا فــى «نكتة».. عندما تجتمع مع النســاء فى الأفراح أو تلتقى معهن فى السوق.

فكانت تحس بالتعاسة وبشــىء آخر مع التعاسة هو نقمة على الأم..

غير أن هذا لم يغير ســلوكها فقد كانت موقنة بوجوب الوقاية. مثل السليم بين المصدورين حين يعتنى بصحة نفسه. وكانت تعلم أن أمها عقبة فى سبيلها. حتى وقعت ذات يوم فى حادثة غرام..

* * *

وتقلبت الأم على الحشــية. فلم تكن تريــد أن تنام. ذكرت هذه الحادثــة.. ذات ليلة اســتيقظت على بكاء «تحيــة» فهالها الأمر. أحست بفزع من احترف القتل حين تمر فوق رأسه «طلقة». تذكرت الدهاليز وحقول الذرة والإشــارات الغامضة بتدبيرها هى. ثلاثون عاما وهى تزال مهنتها حتى فقد كل شىء سحره وزال الغموض عن الســر المقدس – فى نظرها – بين الرجل والمرأة. لكن دمعة بنتها أحرقت قلبها..

أمســكتها من شعرها ورفعت رأســها من فوق الوسادة وجلست معها جنبا لجنب. وذكرت الأم فى هذه اللحظة ومصباحها يتراقص مائــة قصة من الخداع فى ســبع قــرى داخلة فى دائــرة عملها.. وصرخت فى الفتاة ليلتئذ:

– تحية.. قولى.. من ضحك عليك.. لا تنكرى؟

وكانت الأم تصرخ والفتاة تبكى. وظلت المرأتان على هذه الحال ربع ساعة ضاقت بعدها الأم بنفسها.. وهمت بعمل خطير لكن الفتاة دفعتها فى صدرها بقبضة يدها بلكمة قوية. لكمة من تريد أن تتخلص من عار:

– المسألة غير ما فى مخك.. المسألة مسألتك.. أنت.. أنت..

ومن خلال دمعها حكت حكاية حب.. حكاية ذلك الشاب الذى سحرها باستقامته واجتهاده.. وودعها وداعا صادقا حلو قبل سفره للجندية.. وغاب ورجع.

* * *

كانت أمها فى هذه الليلة فى قرية أخرى بعيدة تجمع بين رأسين فى الحلال ولن تعود إلا فى ضحا اليوم الثانى. ووالدها المكفوف البصر راقد على السطح يستجدى الليل نسيمه لأنه بدين ومصاب بالربو. وكانت تحية فى ساحة الدار تقوم بأعمال عادية. حين سمعت نقرة على الباب ففتحت. وعلى ضوء اللهب الآتى من الكانون رأت وجهه. كان قد تغير.. ازداد صحة وشبابا. وبدا مدنيا ريفيا فى ذلك الوهج الأحمر. وابتسامته ساحرة. وهمس: «تحية؟! وحشتينى.. من عندك؟!».

فلم ترد. كان ريقها جافا.. أحست أنها تريد أن ترتمى بين ذراعية لكنها تذكرت أين أمها؟! وماذا تعمل. فأشارت بأصبعها

إلى فوق السطوح. لكنه دخل وأقفل الباب. وسأل عن أمها. فأشارت كاذبة: «فوق».

وفى لحظات أحست أنه تغير. أخبرها همسا أنه مسافر غدا صباحا. وأنه مشتاق. وأنه يفكر فيها. وأنه يحمل لها هدية. وأنه يجب أن تقضى بضع دقائق لهما معا.. ثم.. تنادى على أمها لتعلن قدومه.

وظلا معا فى الركن بعيدا عن وهج الكانون. كانت مضغوطة بين ذراعية ترتجف. وسمعت سعلة أبيها فحاولت إبعاده.. وجذبته قليلا نحو النور فرأت على وجهه علامات غريبة.

فى هذه اللحظة أحست بالفزع.. ليس من الشاب لكن من العدوى.. فكل الناس يظنونها مريضة وإن لم يبد عليها المرض لأنها بنت لهذه المرأة.. وهى بينها وبين نفسها واثقة من سلامتها تماما. وشعرت أنها عند الحافة..

فانهالت على صدره بقبضتها ضربا. وعندئذ أفلتت من فمه كلمه أشارت إلى عقيدة كبلها الحب وأطلقها الغضب.

قال فى صوت كالفحيح:

– تضربيننى؟!.

ثم ضرب لها مثلا:

– «اكفى القدرة على فمها..».

وتركها وخرج.. ووقفت هى تردد فى سرها بقية المثل.. «تطلع البنت لأمها.. ضرورى؟! ضرورى؟!».

وسافر هو. وسهرت هى تبكى فى الليلة التالية. حين استيقظت أمها على نشيجها.

* * *

وشعرت الأم بالتعاسة. أحست أنها عقبة فى سبيل هذه الفتاة. لقد اشتهرت هذه الأم بالتجارة فى الفاكهة المعطوبة ولو أن الغالبية العظمى من فواكهها سليم.. لكن..

وتنهدت:

– آه.. يا بنتى..

ولم تزد ليلتها على هاتين الكلمتين. ثم رقدت كل منهما بجانب الأخرى.

* * *

وها هو ذا الزمن قد مضى.. وإنها الليلة راجعة من عند «تحية» لقد تزوجت وهى على حافة الخطر.. بعد أن مات أبوها الفقيه الأعمى وكفت أمها عن «العمل» منذ سنوات لأن آلام المفاصل استبدت بها وأصبح جريها فى البلاد محالا.

وبدأت «تحية» تحمل مئونة العيش فى يأس وتكفير عن ذنب من ؟!! ذنب أمها.

حتى كانت ليلة صيف وأمها راقدة على السطوح وهى فى ساحة الدار تقوم ببعض الأعمال.

سـمعت نقرة على الباب ذكرتها ماضيا بعيدا. ماضيا لشاب أحبته لكل صفاته ثم اكتشـفت فى الليلة المعهودة أنه مشغول بالتفتيش عن شيء خسيس فيها فلما لم يجده.. انصرف عنه!!

وأرهفت تحية سـمعها. وعـادت النقرة. وفتحـت الباب فإذا به أمامها.. هو بعينه.

كانت النـار تتأجج فى الكانون ودخل الرجـل.. ووقف معها فى النور وسأل بصوت عال عن أمها فردت بأنها فوق.

لكنه عـاد فاحتضنها بقوة ثم تركها وصعد إلـى أمها. وبعدها تم الزواج وكانا فى سن واحدة.. فى الثالثة والثلاثين.

* * *

وأغمضت الأم عينيها وعادت تسـترجع الماضى. شـعرت بفرحة عابـرة لآخر مرة فى هذه الليلة. وهى تتصور بنتها فى هذه الليلة فى أحضان زوجها. ثم حملقت فى خشـب السـقف وتسللت الوحدة بكل سـكونها ومعناها وعمقها إلى أعصابها. وخايلتها هى الأخرى صورة زوجها الكفيف البدين وكأنه جالس يقرأ القرآن وهو يتمايل فى حركة بندولية.. ظلت تهدهدها كالطفل فى الأرجوحة حتى اسـتغرقت فى النوم.

* * *

أما الخفير فى الحطب فقد كان كلما تذكرها عاد فشم كفه ليستنشق

منها رائحة العطر. فأغمض عينيه واستسلم تحت غطاء الصوف فى كن الحطب إلى أفكار متواردة.. رجال ونســاء وفتيان وشبان.. وحوادث تكلمت عنها القرية علنا وســرا. وأخيرا تنهد هو الآخر.. فقد كان من الذين يدعون لتحية بــألا يلحقها قدر أمها وذلك كلما رآهما معا على الطريق والأنظار تتبعهما من الخلف.

* * *

سنابل

فتح عينيه مستيقظا من النوم فجأة كأن يدا قد هزته. تلفت فإذا الظلام مخيم والليل ساكن لا قمر فيه. والرطوبة ورائحة القش تملأ أنفه وهو مستلق على ظهره تحت غطاء من الصوف. ونقيق الضفادع متخاذل يغالب النوم.. كل شيء يستريح.

تمطى تحت غطائه فسمع طقطقة عظامه.. أحس بالراحة.. كان نومه عميقا بدليل ما يحسه الآن.. وكان طويلا بدليل أن القمر قد غاب. وحملق فى النجوم فرأى بريقها المعدنى يغمز فى صمت فتحرك فى مرقده ثم جلس.

كانت أجران القمح ممتدة حوله لا تكاد العين تدرك لها نهاية. قشها المكوم على هيئة مستطيلات أو مكعبات أو هيئات لا أشكال لها – تبدو فى ظلمة الصيف مثل كثبان من الرمل مختلفة الأحجام. والنورج بحديدها الأسود فى جمود.. آلات تطحن بالنهار وتجمد بالليل مثل حيوان شبع ونام. ليس فى الجرن حركة قريبة منه. فأحس بظل من الأمان يخيم على كل شيء، ظل لم يستطع له تعليلا. لعله كان منبثقا من داخله الملىء بالراحة أو لسبب لم يقدر هو على الوصول إليه.

غير أنه نفض عن نفسه الغطاء وقام واقفا. أخذ يتلفت فى كل

اتجاه فملأ الصمت أذنيه. وتذكر حركة النهار تحت وهج الشمس وهم يدرسون القمح.. أزيز النوارج والكرابيج فى يد الفلاحين يلفحون بها مؤخرات الحيوانات.. تلك التى تلف فى دائرة مقفلة.. وتذكر ابنه الذى نام على الصرير الرتيب فهوى وكاد يموت.. جرح فقط ولطف به الله. ولولا أدركه عمه.. أخوه فاعترض سبيل الماشية لما وقف النورج.

وألفى نفسه ينظر إلى السماء كأنه يحس من ورائها وجود الله ذلك الذى لطف به فنجا له ابنه. وخفق قلبه لتلك الخاطرة ودخل أخوه نطاق ذكرياته سأل نفسه عنه كأنه لم يره منذ زمن طويل فذكر أنه منذ ليلتين فى البندر هناك على مقربة من زوجته المريضة فى المستشفى الأميرى. وقبل أن يسافر أوصاه أن يولى قمحه شيئا من الحراسة.. خصوصا بالليل.

ولم يكن أحد يعلم أن شقيقه «محروس» غائب عن القرية كطبيعة القرويين فى إخفاء تنقلاتهم بعضهم عن بعض. وها هو ذا الآن غائب فى البندر ولا أحد يحس بل ربما ظنوا أنه كامن فى مكان ما بين أكداس قمحه بين القش وأن حركة واحدة من يد غريبة لابد أن توقظه من النوم.

ونحو جرن الشقيق «محروس» مشى شقيقه «كامل» بخطا خفيفة يجوس خلال المكان. تخطى ثلاثة أجران ثم وقف عند الرابع. ولما داس على قش القمح لم يصدر منه صوت، ذلك لأن رطوبة الليل

حولته إلى شـــيء طرى ليس له خشخشـــة، وفى صمت وقف ينظر إلـــى المحصول المكدس بغير نظام فى عـــدة أماكن ونظام فى أماكن أخـــرى.. ثم.. بطريقـــة تلقائية جلس على القمـــح.. وتناول إحدى الســـنابل وفركها بين كفيه ثم نفخ ما حولها من برج فبقى الحب.. أخذ يتســـلى. أخذ يعد الســـنبلة وبعد ذلك اعتـــراه تفكير. تفكير عميـــق. تفكير العامل الذى يراقب نتيجـــة أعمال غيره ويحاول أن يوازن بينها وبين أعمال نفسه وأطرق قليلا وتنهد. أحس أن الفرق بيـــن محصوله ومحصول أخيه لابد أن يكـــون كبيرا.. وتناهى إليه نقيق الضفادع فى شـــيء من النشاط كأنه يســـتحثه على القيام. عند ذلـــك تحرك ووقف ثم تحرك من جديد ودار حول الجرن وتنحنح. كل شـــيء علـــى ما يرام. فأعـــاد خطاه راجعا إلى حيـــث كان.. إلى جرنـــه. وعدل من وضع غطائه الصوفى الذى كان قد لفه على حزمة من القمح ليوهم أن أحدا يرقد تحته مخافة أن يمر إنســـان مصادفة فيـــرى الغطاء بلا حارس.. ثم جلـــس كامل على قمحه هو. وتنهد. كان لا يزال يذكر عدد الحبات التى وجدها فى إحدى سنابل أخيه. ومد يده بحركة تلقائية وأخذ ســـنبلة مـــن قمحه وفركها ثم.. نفخ مـــا حولها من برج وبقى الحب.. وأخذ يعد فى الظلام.. «بســـم الله الرحمن الرحيم.. واحد.. اثنين.. ثلاثة.. و..».

ولما انتهى من العد أحس أن الفرق كبير فأمسك بسنبلة أخرى. فركها بيـــن كفيه ونفخ البرج حتى بقى الحـــب وعاد يعد.. لكن..

كانــت النتيجة موحدة. لم يختلف عدد حبــات الأولى عن الثانية فتأكد أن الفرق بين محصوله ومحصول أخيه سيكون كبيرا.

أحس بشــىء من الضيق لم يســتطع تعليله ثم.. سريعا وبحركة عقلية بدائية اســتخلص أن ذلك راجع للاجتهاد وأنه كذلك راجع للــرزق.. ما كتبه الله مع العمــل فى صفحة واحدة.. صفحة الأرزاق الشخصية.

وتمدد تحت غطائه وأخذ يحملــق إلى النجوم. وبطريقة عادية تدل على السهر والفراغ أخذ يعد.. يعد النجوم.. وعندما وصل إلى المائة ألفى نفسه يضحك حتى كاد يسمع صوت نفسه. وفجأة وكأنما أوحى إليه بشىء قام واقفا. ودفن الغطاء الصوفى تحت أكداس القمح وأخــذ يعمل عملية غريبة لم ينته منها إلا وجســمه يتصبب عرقا وإلا عندما سمع المؤذن على حائط مسجد يهتف لقدوم الفجر.

عندئذ كف عن عمله. جلس يمســح عرقه وينفض عن جسمه ما علق به من تراب وقش. ثم ذهب إلى الترعة وجلس يغسل هذا عنه. وبين وهلة ووهلة كان يشعر بمعان متضاربة.. يشعر أنه ما فعل إلا الصواب وأحيانا كان يشــعر أنه فعل الخطأ كله. لكنه على كل حال كان قد انتهى. ظل ساعة كاملة ينقل القمح من جرن لجرن مستجيبا لنداء فى نفســه منتهزا غيبة أخيه ونــوم الناس وبعد الأجران عن المساكن.

وعندما خلا بنفسه حسب المرات بالتقريب فألفى نفسه قد نقل مائة حمل على كتفه هو من جرن إلى جرن حتى تعب ظهره.

* * *

وفى المساء التالى كان مريضا. لا يدرى لماذا ارتفعت حرارته. ثم قالوا له أن إحدى كليتيه ملتهبة وعليه أن يستريح فى الدار.

كان أخوه قد عاد من البندر وقد تم برء زوجته.. نعم عاد سعيدا ولكنه قلق البال لأجل محصوله فى الجرن. ولم يكن يدرى مدى الحراسة التى بذلها له أخوه. على كل حال كان معتقدا أن حارسا واحدا على شىء واحد أقوى من حارس على شيئين لأنه كان فى رأيه لا يزيد على نصف حارس.

وعندما نزل إلى القرية تناهى إليه خبر مرض أخيه. ذهب إليه وعاده وسهر عنده حتى اطمأن عليه. وعندما هم بالخروج من الحجرة العلوية الصيفية فى دار أخيه نظر إليه شقيقه نظرة ذات معنى ضحك لها «محروس» ضحكة حية متدفقة قائلا له: «داين تدان ياما أقرب الأيام. يوم لك ويوم عليك. اطمئن يا كامل. كما حرست جرنى سأحرس جرنك». ونزل وودعه أخوه بنظرة ذات معنى فلقد ذكر عدد مرات القمح التى حملها من جرن إلى جرن. كانت أكثر من مائة كل مرة منها هى نهاية ما يحتمله رجل.. وقال فى نفسه وهو يعتدل على ظهره وعليه الغطاء الصوفى الذى كان

معه فى الجرن: «ربما كان مجموع ما نقلته من القمح يساوى حمل جمل.. حمل جمل.. وتنهد. وشعر أن أجفانه تثقل. كانت الآلام قد بدأت تخف عنه فأحس وطأة النوم. ورأى نفسه وهو بين اليقظة والنوم يقوم من جديد بتلك الحركة السريعة المدوخة. حركة نقل القمح من جرن لجرن. حتى أسلمه هذا الدوار إلى نوم عميق القرار».

* * *

فى هذه اللحظات التى هبط فيها كامل إلى أعماق النوم كان أخوه قد نفض الغطاء عنه. نظر إلى النجوم المتلألئة فرأى نجما يهوى.. عرف أن الفجر يحث خطاه وأن الليل أوشك أن يولى. وكان الجو رطبا أيضا وحتى الضفادع فى الترع سكن نقيقها. سكون تسمع فيه خفقة النفس ونجوى القلب. وداس على القش فألفاه رطبا. لا حس ولا خشخشة. ودس غطاءه فى قمحه وتحرك نحو الجرن الآخر. رأى جرن أخيه وقد نفش منه جزء وقف عليه النورج فى جلال وجزء آخر قد رص بنظام وبحركة غير إرادية جلس على جرن أخيه. وبطبيعة الفلاح مد يده فأخذ سنبلة. فركها بين كفيه. نفخ البرج فبقى الحب.. أخذ يعد: «واحد.. اثنين.. ثلاثة.. و..» تنهد. شعر أن الفرق بين المحصولين عظيم، بين محصوله ومحصول أخيه.. نعم.. لكنه أعاد الكرة فأمسك سنبلة أخرى وفعل نفسى الشىء. فركها بين كفيه وعد الحب. «يا إلهى.. ذلك حظ

أو عمل؟!» هكذا قال فى نفســه. لكنه أيضــا بحركة عقلية بدائية استخلص أن ذلك راجع للاجتهاد وأنه كذلك راجع للرزق.. ما كتبه الله مع العمل فى صفحة واحدة صفحة الأرزاق الشخصية.

وعاد إلــى جرنه وتمدد تحت الغطاء وأخــذ يحملق فى النجوم بطريقة تدل على الفراغ. وبطريقة مألوفة عند الساهرين فى الفضاء أخذ يعد.. يعد النجوم.. وعندما وصل إلى المائة ألفى نفسه يضحك. نفس الذى حدث لأخيه. وفجأة وكأنما أوحى إليه بشىء قام واقفا. ودفن الغطــاء الصوفى تحت أكداس القمح مــرة أخرى وأخذ يعمل عملية لم ينته منها إلا وجسمه يتصبب عرقا والمؤذن يهتف لقدوم الفجر على حائط المسجد.

كان يفكر وهو جالس إلى ماء الترعة يغسل عن جسمه كل هذا.. هل فعل الصواب؟ وأحيانا كان يشعر أنه فعل الخطأ. لكنه على كل حال كان انتهى. ظل ســاعة ينقل القمح مــن جر لجرن. نقل حمل جمل.. نعم حمل جمل حتى تعب ظهره.

* * *

وكعادة الفلاحين أخذ كل يسأل جاره عن كمية محصوله. وبدت السنة فى مجموعها أقل من العادية فى محصول القمح. فلم يكن فى الجرن محصول أعلى من ستة أرداب للفدان الواحد.

ولم يكن الشقيقان قد انتهيا من درس قمحهما. وعندما تم الدرس

وبدأت التذرية كان كل منهما جالسا وراء الرجل الذى يؤدى هذه العملية وهو مطرق يفكر فى عمق عما عسى أن تكون النتيجة.

وفرغ «محروس» أولا فقصد نحو أخيه يحمل إليه الخبر:

– تصور يا أخى.. قمحى يعطى فى هذه السنة العرجاء ثمانية أرداب للفدان؟!

قام أخوه وقبله.. وظل صامتا كأنه يعرف السر. وبعد يوم واحد فرغ الآخر الآخر وعرف المحصول فقصد إلى شقيقه بدوره قائلا له:

– تتصور يا أخى.. قمحى يعطى أيضا فى هذه السنة العرجاء ثمانية أرداب للفدان.

فقام أخوه وقبله وظل صامتا كأنه يعرف السر.

* * *

أما حقيقة السر فالله وحده الذى دبرها. فقد أشفق الأخ الحاضر على أخيه الغائب فى البندر عندما خمن أن محصوله سيكون رديئا وهو صاحب أولاد وأن محصول حقله هو سيكون أوفى فنقل إلى جرن أخيه حمل جمل.. وعندما مرض الثانى فى الليلة الثانية فعل أخوه نفس الشىء عندما خمن أن محصول أخيه سيكون ضعيفا وهو صاحب أولاد وأن محصوله أوفى فنقل كذلك إلى جرن أخيه حمل جمل.

وهكذا لم يعد فى الموقف شىء يتنافى مع علم الحساب فقد

جنى كل من الشــقيقين ثمرة عمله فقط. غير أن شــيئا واحدا مهما ظلل على محصول كل منهما... ذلك المحصول الذى حرســه الحب فملأته البركة حتى فاق كل تقدير.

* * *

الساهرون

أحس أن الليل طويل. فسأل نفسه وهو يتجه إلى النافذة ليلقى منها نظـرة على الظلام: «هل خلـق الليل لينام فيه النـاس؟» ثم ما لبث أن أجـاب عن السـؤال: «لا ليس ضروريا فهناك أعمال لـم يخلقها الله إلا لليل» وعندئذ سـمع نحنحة الشرطى الموكل بالحراسة. رآه فى الشارع المظلم تحت بصره ينتقل مثل طيف.. بندقيته على كتفه وحلته صفراء.

إن هـذا البندر الصغير ينام مبكـرا لكنه هو لم ينم حتى الآن.. ويحس أن الليل طويل.. طويل جدا.

وعلـى مرمـى البصر عدة نخلات متلاحقة فـى الطول تقف فى ظلمة الخريف ونداوته رمزا لانتهاء موسـم الفاكهة. وبدأ يشـعر بالانقباض. إنه لا يدرى كيف يبدد الوقت، وتمشـى يقطع الشـقة الصغيـرة فـى كل أرجائهـا ويتذكر ما كان يحفظـه من حكمة عن الوقت «الوقت كالسـيف إن لم تقطعه قطعك» وعندئذ تبسـم. فهو «محضر» فى محكمة البندر، عازب غريب يسكن هذه الشقة. وكان قبل ذلك يقطع الوقت كل ليلة مع اثنين من أصدقائه لكنهم مع ذلك شعروا بأن الوقت «قطعهم».. الثانى مدرس والثالث كاتب فى محل تجارى. وعندما يدخل الليل يلتقون بعد العشـاء فى مسكن الكاتب وعلى كواهلهم أحمال معنوية لا يشـعر بها سواهم. كل منهم ينظر

إلى حائط المسكن وكأنه جبل يزحف عليه يريد أن يصرعه تحته فيلبس ملابسه ويجرى. ويلتقون فى شقة الكاتب.. إنه عازب مثلهم. ثلاثة من الغرباء. وكان المحضر أكبرهم سنا وأميلهم إلى السيطرة وهو الذى يوحى إلى المجموعة وينظمها.. وقد ظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى أقسم الثلاثة فى الليلة الماضية.

وقف المحضر يخاطب نفسه والليل أمامه ممدود على الكائنات بلا نجوم ولا قمر والسماء مطموسة بالسحاب.

«لو أننى تزوجت لربما حدت عن هذا الطريق.. ربما كنت لا أشعر بالملل. لكن. فيم كنت أقضى الليل؟ لقد فررت من أبى وأخوتى لأن أبى قضى لياليه فيما فررت أنا منه. قضاها هناك فى غرفة بلا نوافذ مع زوجة سقيمة.. وأنجب عددا من الناس تحير فى أمرهم. ثم استغاث بى كواحد منهم. لكننى لم أستطع أن أفعل شيئا. «وتبسم أسفا» كان يريد منى أن أطفئ حريقه بدموعى.. كنت سأفقد عينى ثم تأكله النار، من أجل ذلك فررت.. ثم بدأت أحس بالوحدة وكم سخر منى زميلى محسن ذلك الذى ملأ دنياه بالهوايات.. آه.. لكنى لم أكن أصدق أن هذا نافع.. كان ينسج سلالا من القش ويطرز مثل النساء ويرسم لوحات مثل فنان وكنت جاعله هدفا لسخريتى.. ثم تزوج – أما أنا فقد ألت إلى هذه الحال.. آه.. إننى لا أستطيع النوم.. شىء فى كفى ورأسى ودمى يتحرك ويحركنى وإن كنت ثابتا.. كعجلة تدور على الفاضى.. إننى أتعذب».

وأشـعل سـيجارة ووقف يدخنها وينفث فى وجـه الليل دخان اللفافة مثل تأنيب أو احتجاج أو تنفيس عما فى الصدر.

وفى الشـقة الثانية فى جنوب المدينة كان المدرس سـاهرا فى النافذة كذلك. الحارة ضيقة ومسدودة. والليل ساكن. وهناك فانوس علـى باب، الحارة يلقى شـعاعا متعثرا ما يكاد يصل إلى منتصفها حتى يـذوب، وصوت دجاج يقرقر فى هدوء واسـتعذاب للنوم فى سـطح منخفض فـى بيت جاره، إنه ضئيل ضعيـف الصحة يوحى مظهـره بأنه فى الثلاثين إن كان فى الأربعين من عمره ومنذ ثلاث سـنوات وهو فى هذه المدينة الصغيرة. تعرف بالمحضر والكاتب التجارى وربطت بينهم تلك العلاقات المرة.. يقف فى نافذته الآن ويسـمع بكاء طفل صغير أمه لم تخف إليـه مع أنه يبكى منذ ربع ساعة.

وطاحت به الخيالات وغمره ما يشـبه الغيبوبة. فهو حتى الآن لم يتزوج ولم يدخر شـيئا من مرتبه.. ولولا ذلك الكاتب التجارى لانكشـف حاله فى الربع الأول من الشهر. والشباب فى سبيله إلى الذبول «فلماذا آل إلى هذه الحال».

سـأل نفسـه هذا السـؤال وسـالت دمعة على خده. إنه لم يكد يكسـب من الدنيا شـيئا. عاش نهاره صارخا فـى الفصل ثم يعيش الليل هكذا.. يقابله بخوف شـديد ويريد أن يقطعه ولم يستطع أبدا أن يقطعه وحده.. وكان لابـد من زملاء فى الأزمة.. يحملون نفس

المأساة.. وأبوه وأمه فى غنى عنه لكنه، فكر فى مستوى معيشة أعظم. إنه يحب السيارات فلما اقتنى منها واحدة أكلت قوته.. وحول الخبز إلى بنزين.. ولم يكن يدرى أين يذهب بها ولذلك فرضت هى عليه حركتها بدل أن يفرض هو عليها حركته. فكان يذهب إلى مدينة طنطا أو دمنهور ليقضى مع صديقه سهرة فى السينما، ثم تركها فى الجراج أخيرا ثم لحقها الصدأ.. ثم باعها بأبخس الأثمان.. ثم ضاع ثمنها.

ثم تذكر زميله محمود المدرس.. ذلك الذى يقضى الليل فى القراءة وينفق من مدخراته على شراء الكتب.. لقد ظهرت له مقالة فى إحدى المجلات وطار بها وطار به التلاميذ وشعر هو ومن حوله أنه مخلوق أعيد خلقه. ثم رقى ونقل.. ثم لمع اسمه.. وفى نهر الاجتماعيات رأى خبر زفافه إلى باحثة اجتماعية.. لقد عرف طريق الحياة.. وعن طريق العزلة عرف أبواب الفكر وطريق المجد.. أما هو؟!

وأحس أن دمعة تترقرق فى عينيه.. وساد صمت.. كف الدجاج عن القرقرة وكف الطفل عن البكاء.. وسمع من وراء تلك النافذة ضحكة امرأة فازداد الليل ظلاما فى عينيه لأن علامات الأنس قد تخلق الوحشة لمن حرم من الأنس أيام شبابه.

ودخل وأقفل النافذة واستلقى فى الفراش يفكر فى مادة الحصة الأولى وذلك التلميذ النبيه الذى يحاول كشف إهماله.. والهرب

المكشـوف الذى يهربه من الأسئلة.. وتنهد.. وتذكر زميله وسأل نفسـه: ترى مـاذا يفعل عزيـز المحضر وعبده الكاتـب التجارى الآن؟!.. «ترى ماذا يفعلان؟!».

أما الكاتب التجارى فقد كان فى هذه الليلة مثل ذئب حبيس فى قفص. شـقته المطلة على الميدان الصغيـر مليئة بالبق.. لم تبيض حيطانها منذ سكنها. ولم تنظف كما ينبغى.

يطل من الشباك على الميدان.. ويستعيد الحركة التى يموج بها أثناء النهار. وتملأ أنفه رائحة الجبن والزيتون والحلوى الطحينية وكل ما يفوح عادة من دكان بقالة كبير. يقع على مرمى البصر منه.. بابه الصاج مقفل وعلى مقربة منه يمر شرطى متمهل.

إنـه فى الثلاثين من عمره ربعة سـليم.. كفـه بيضاء بضة مثل كف فتاة ومعصمه ملىء ملفوف. وله شـارب أنيق يحير الحلاق فى تنسـيقه.. لكنه طويل اليد.. وكان من الممكن لو حسب ما أخذه من الدكان اختلاسـا فوق مرتبه أن يشترى البيت الذى يسكن فيه الآن أو يتـزوج على الأقل.. لا يدرى أين يذهب المال.. وكل ما عمله من فضل رجا به وجه الله!! أنه أقرض صديقيه قرضا حسنا عدة مرات ولا يزيد مجموع ما أخذاه منه عن خمسـين جنيها لم يسـترد منها سـوى بضعة جنيهات والباقى تحت رحمة الظروف التى يعيشها الثلاثة.

ليل وفكرة وسهر..

جمعت الثلاثة علـى هم واحد.. كانوا عبيـدا له صنعوا قيدهم بأيديهـم ثم وضعـوه فى أقدامهم ثم أقفلوه ورمـوا بالمفتاح.. ليس هنـاك مفـر.. كل واحد منهم يحب صاحبيه جـدا ويكره صاحبيه جدا.. كالكبد المريضة مصدر ألم وسهاد وأحلام سلطانها الكابوس وليس هناك إمكان لاستئصالها.. عذاب!!

وكل منهم يسأل نفسه «ترى ماذا يفعل الآخر؟!»، والليل بطىء، وكانت شقة الكاتب التجارى هى المقر المختار لاجتماعهم. كانوا يطلون على الميدان الأخرس ويتساءلون: «أهكذا تموت الأماكن كما يموت الناس؟!» ذلك الذى تسـمع فيه النهـار مئات الهتافات من سائقى سيارات الأجرة والباعة والسماسرة.

كان هـذا الميدان صورة لليل المدينـة، ليس فى الخارج حياة. كلها خلف النوافذ والأبواب. ولمدد قصيرة جدا فى الليل ثم تنطفئ الأنوار ويتحول كل حى وراء كل باب ونافذة إلى جثة تنتظر بعث الصباح.

أمـا هؤلاء الشـبان فقد كان فيهم طاقة حاربـت الليل وحاربها واهتدوا «وكأنمـا بالفطرة» إلى الطريقة التى يبـددون بها الوقت. وكان شأنهم معها أول الأمر مزاحا استلذوا المزاح ثم أصبح المزاح حقيقة كما هو مألوف بين من يتبادلون النكت ثم يتشاتمون.

ثـم تحولت الحقيقة – التـى هى فى الأصل مزاح – إلى عبودية مشـوبة بالقلق والكمد والتلاوم كل منهـم يلوم الآخر ويتهمه بأنه

السبب. ومع ذلك لكى يتم العمل فلابد أن تكمل الدائرة وينسرق الليل.. ينسحب فلا يحسون به مثل لص فى ملابس سوداء يسلب أمنهم ووقتهم ولباب شخصيتهم.. ويمضى.

وفى الصباح يخرج كل واحد منهم وهو يفكر فى حوادث الليلة الماضية بينه وبين زميله. وأصداؤها عادة لا تفارق آذانهم.

والمسرة التى قد تكون فى نفس أحدهم تحمل فى طياتها سرعة الزوال فهو لذلك يقطع نهاره فى انتظار سواد الليل ليرى ما إذا كان هذا وهما أو حقيقة.

أما الحسرة التى قد تكون فى نفس أحدهم فإنها تحمل فى طياتها معنى الأصالة ولذلك فإن صاحبها يقطع نهاره فى انتظار سواد الليل ليرى ما إذا كان هذا وهما أو حقيقة.

ناس يسابقون ظلالهم فى مشوار لا ينتهى.. حل الوهم فيه محل العقيدة بأنهم سينفصلون يوما عن ظلالهم ويسبقونها.

لذلك فإن الليل على الثلاثة طال بعد أن قرروا ألا يلتقوا حسما لهذه الدوامة التى هى مسابقة الظل.

لكن ما لبث الليل أن انتصف وأحس «المحضر» أن البقية الباقية منه نصف جبل من الجرانيت لا يستطيع حمله وحده فنظر إلى النخيل نظرة أخيرة ونزل إلى الشارع.

كان يعدو هو فى جلبابه وعوده يترنح وقصد توا إلى شقة المدرس.

كانت الحارة مليئة بروائح جوافة لعلها منبعثة من مخزن فاكهة فى بيت يشبه «الربع» ومع هذه الرائحة صمت وظلام وأحجار تعثر فيها. ودخل الباب. وكان السلم الضيق الذى كأنه منحوت فى الجدار فى مواجهته تماما.. فصعد.. صعد حتى طرق الباب.. ولم يرد أحد. وقف يتعجب.. كيف يستطيع أن ينام الآن والساعة لم تتجاوز الثانية عشرة والربع!!.. «كأنه خالى البال أو فى أحضان عروس» من الذى يحمل عادة فى الجيب وسلط نوره على الباب فإذا المفتاح فى الخارج.. فى الباب من الخارج.. فقهقه قائلا فى نفسه «نسيه ونام».. وفتح ودخل فإذا السكن ليس فيه إلا السكون. وإذا بعديد من الأوراق الممزقة تملأ حجرة النوم داس عليها «المحضر» بشبشبه وكأنه يريد أن يقتل فيها شيئا حيا.

أقفل الباب – باب صديقه المدرس – ووضع المفتاح فى جيبه وهبط السلم وهو غريق فى الأسى. ثم أخذ سمته إلى بيت الزميل الثالث.. الكاتب التجارى.. هناك الميدان الأخرس.. حيث صورة حية للمدينة الميتة وصعد السلم وما كاد يقف بالباب حتى سمع جدالا وضحكا. وطرق الباب فإذا صوت أحدهم يقول: «إنه هو بلا شك».

عرفوه وقاموا وفتحوا له.

ودخل يتفحص كل شىء ثم وقف أمامهما صامتا كتمثال ثم نطق بعد قليل قائلا للمدرس:

– أيــن أوراقك؟!. «وقهقــه» رأيتها هناك.. لقــد مزقتها أنت ودســتها أنا.. لكن السر الســام الكامن فيها حركنا نحن الثلاثة.. لم يذق أحدنا النوم..

وعندما ســحب الكاتب التجارى من تحت وســادة فراشــه «أوراق اللعب».. وأخذ «يفنطها».. بطريقة ماهرة ســاخرة شعر الاثنان خلالها كأن كلمة إغراء تصل إلى آذانهم من إحدى بنات الليل.

وعندئذ هجم المحضر على صاحب الشــقة وأخذ الأوراق منه ومزقها ورمى بها وداسها كما فعل فى شقة المدرس كأنه يريد أن يقتل فيها شيئا حيا.

لكنه فوجئ بأن هجم عليه الكاتب التجارى وأمسك بخناقه وهزه مهددا متوعدا. لكنه لضخامة جسمه صمد له. وهو يلهث ويغلى.

ثــم جلس الثلاثــة صامتين.. يد كل منهــم على جبينه كمن يعانى صداعا مزمنا.. يتذكر صميم ماله الذى أكله القمار والوقت والفكــر.. ويتذكر الزملاء الذين هربوا مــن الوحدة والمخاوف بالهوايات.. مثل ذلك الرجل الذى كان يطرز مثل النساء ويرسم مثل فنان.

ومثل ذلك الذى انتفع بالعزلة وقرأ.. وأخيرا أصبح شيئا.

قال المحضر: اسمعوا لى: أحسن ما يمكن قوله هو أن يفارق

بعضنا بعضا.

قال المدرس: سأطلب نقلى.

وقال المحضر: وأنا كذلك.

ورد الكاتب التجارى قائلا: أما أنا فغير ممكن بالنسبة لى أن أنتقل.. ارحلوا أنتم واتركونى.. ولا أريد ما عليكما من ديون.. فقط.. ليشتر كل منكما بدلة.. أو حذاء.. أما أنا فبعد رحيلكم.. ممكن أن أستريح.

* * *

تعاطف

كنت ساهرا أنتظر دقة جرس الباب. كل شيء فى كان متحفزا مستفزا. ولأول مرة بدأت أرى شعورى بوضوح. صعب جدا أن نعرف نفوسنا. خيل إلى أن جرس الباب يرن ثم تبين لى أن هذا كله وهم.. إنها لم تعد حتى الآن والساعة تدلف إلى التاسعة مساء والدنيا شتاء.. آه يا سميرة.. الآن رأيت ما فى نفسى. استطعت أن أنظر إلى قاع شعورى وأرى ماذا هناك. هل كنت وهما فى حياتى؟! أرجو أن أكون مخطئا..

ليس فى البيت خادمة. ليس هنا إلا أنا وسميرة التى لم تعد حتى الآن. قمت وأشعلت البوتاجاز وصنعت لنفسى فنجالا من الشاى أو أخذت قرصا من الأسبرين.. ومضى على ذلك وقت لكننى لا أزال أحس بالصداع. ثم تبين لى لوفرة ضيقى أننى نسيت الأسبرين على المنضدة وشربت الشاى وحده.. وحملقت فى البيجاما فإذا بى قد لبستها بالمقلوب.

هناك ساعة تدق معلنة التاسعة مساء وهى لم تعد من الخارج.. عندما تعود سأعمل أشياء كريهة.. سأجرها من شعرها كما كان يفعل آباؤنا قديما وأنهال عليها ضربا. لكن.. هل يليق هذا بالمتعلمين؟!.. غير أن اضطراب العصب ليس له علاقة بالثقافة. إن علماء النفس

يصابون بالقلق وربما الجنون.. وطبيب القلب مات بالقلب. أنا أشعر الآن أننى رجل فقط.. رجل لا غير.. رجل بشارب.. لا لأننى أحمل ليسانس الحقوق. وهى.. امرأة.. مجرد حواء.. بصرف النظر عن أنها تحمل ليسانس الحقوق مثلى.. مثلى؟!

إن سميرة زوجتى. زوجتى منذ عام واحد رأيتها صبيحة هذا اليوم تدفع ضريبة الأمومة للمرة الأولى حين استيقظت على صوت قىء متشنج فوجدتها نصف منهارة فى الحمام.

كانت قد نامت متأخرة لأن أعباء وظيفتها أجبرتها على السهر على بعض الدوسيهات لتجهز ما هو ضرورى منها لليوم التالى. أما أنا فقد نمت مبكرا رخيا مرتاحا لأن أعمال وظيفتى فى المستخدمين قليلة للغاية لا تكاد تأخذ ربع ساعة اليوم المكتبى ونمت واستيقظت ثم نمت واستيقظت وفى كل مرة كنت أتحسس مكانها فى الفراش فإذا به خال منها. كان هذا فى الليلة الماضية.. ثم جرفنى النوم كتيار الفيضان.

وعندما كانت هذه الساعة التى أسمع دقاتها الآن تعلن الثالثة صباحا دخلت سميرة تتسحب حتى لا تقلق منامى. وسمعتها ترقد وهى تتأوه. عظامها الناحلة تطقطق وأنفاسها متلاحقة.

لم أشأ أن أكلمها ساعتئذ. أحسست بشىء من العطف على أوصابها لأنها تعمل وتضوى وتذوى ويمتصها «الوحم» لكن ذلك ومض واختفى ليلفنى النوم فى دثار دافئ حتى قمت صباحا على قىء متشنج.

وها هى ذى لم تعد حتى الآن من الخارج والساعة تدق التاسعة، وأشـعر برغبة فى أن أرى منظرها وهى داخلة. تحمل حقيبة مثل ساعى البريد كبيرة مليئة بالورق وتلهث من السلم الذى تصعده إلى مسـكنها فى الدور الخامس. ما لى أقول عنهـا هذا.. هل تغيرت نحوها مشاعرى فلم أعد أحبها؟! لكن.. كيف؟!

لقد قضيت سـتة أشـهر وأنا أعانـى الأرق. كان ذلك منذ ثلاث سـنين ونحن فى سنة واحدة طلبة فى كلية الحقوق. أحببتها.. من العبث أن تسألنى كيف أحببتها فقد تبين لى أن مرآة الحب ليست عميـاء بل مرآة الحب تعكس دائما وجه القمر. وعندما كانت تقىء اليوم على الحوض تذكرت ليالى سـهرى من أجلها. كم رأيت وجه الصباح مـن خلال النوافذ وكم ضاقت على ملابسـى. لم أر فى تلك الأيام أنفها الأفطس ولا بشـرتها الداكنة ولا شـعرها الجعد. وقد اشـتبكت فى عراك بعودى الطويل وجسمى الفارع مع طالب رماها بنكتة وهى فى أحد الممرات حين همس بحماقة خلفها: «يا سلام على أنف كليو باضرة!!».

* * *

سألت نفسى ذات ليلة من ليالى السهر.. أيام زمان.. ماذا أحب فيهـا؟ فلم أحظ برد قاطـع. قيل لى عن طريـق الهواجس وأجوبة الأصدقـاء وأدعياء علم النفس: إنها تكميل لك. فأنت جميل كرجل

وهى غير جميلة.. وقيل لى: لعل اجتهادها فى بناء نفسها سحر قلبك لأنك تمشى فى طريق شبه ممهد بلا تعب.. وقيل لى: إنك محروم.. ولكن أقرب الإجابات إلى عقلى.. ودعك من قلبى.. هو أننى لم أوفق فى حب امرأة جميلة أبدا.. فضلا على أن سميرة كانت ذات تفوق عقلى فى الدراسة تحسد عليه من كل الناس.. وقيل لى: إن ركوعك أمام جميلات الوجوه لم يجد عليك شيئا فلما ذهب دعائى هباء فى المعبد الوثنى وأطلقت أول دعوة فى هذا المعبد السماوى «أيام الحب!!» هطلت السماء بالرحمة ورأيت فى عينيها – اللتين لا بياض فيهما إلى حد شاذ – عطفا نديا ينطق فى تلعثم.

كنا فى «بوفيه» الكلية. ولم يكن هناك سوانا.. وكان اليوم قبل وقفة عيد الأضحى.. لا زلت أذكر.. وعندما صارحتها بحبى كان أمامها فنجال من «اليانسون» تملأ رائحته الجو حول منضدة. ومجلة على غلافها رأس «كليوباطرة».. كانت تحملق فى أنفها كأنما تجسدت أمامها الشتائم. ولكننى بعد أن أطلقت كلمة «الحب» كحمامة بيضاء رأيت سميرة وهى خارجة تكاد تطير بجناحين.. لا أنسى!!

آه.. مكسينة.. لقد تغيرت كثيرا فى هذه الأيام.. نقص وزنها واصفر لونها الكابى كليمونة خضراء جفت على الشجرة. هيه.. أعمالها فى التحقيقات كثيرة وثقيلة. اطلاع وتفكير وكتابة وسهر. وتحلم بمكان مرموق حالا.. ثم «وحم» كأى امرأة فى حقول الذرة.. قىء وتشنج.

ولماذا لا أحبها الآن؟!. إننى بانتظار دقة جرس الباب لأمسك

بتلابيبها.. لكن.. هل تحتمل هجومى؟

إنهـا كبروة الصابـون. بقايا جهـد وإنهاك. وأنـا.. وزنى فى تزايد.. ومظهرى أقل من عمرى الحقيقى.. آه.. آه..

جرس الباب يدق لقد جاءت..

وقمت وفتحت الباب فإذا بسـميرة جالسـة على السـلم تأخذ. أنفاسها بعسـر.. أمامها الحقيبة المألوفة المليئة بالأوراق وكيس من الورق ملىء بالخضروات.

وأشـارت إلى أن أحمل هذه الأشـياء فلم أمد يـدى. ظللت واقفا كتمثال فزادت دهشـتها. وبإحسـاس حواء شـعرت أننى غضبان فتحاملـت وقامت وحملت فى كل يد شـيئا ثـم دخلت إلى حجرة المكتـب فوضعـت أوراقها ثم إلى المطبخ فوضعـت الخضروات ثم عادت إلى فى حجرة النوم وأخذت تخلع ثيابها.

– تأخرت عليك.. متأسفة عيبى أننى درست فى كلية الحقوق. ليتنى اخترت كلية أخرى.. كان عندنا تحقيق استدعى كل هذا التأخير.. لكن.. مالك لا ترد.. زعلان؟!. سأصالحك.. لم تتعش يا حبيبى؟!.. «فكرى».. رد.. فالمرتاحون هم الذين يتحملون المتعبين وليس العكس..

لم أرد. كانت قد خلعت «تاييرها» الرمادى وبدأت تلبس قميص النـوم. وكانت أصابع يدها ترتعش. ورأيتها تحرك خاتما فى يدها لترى مدى اتساعه وهل سيسقط؟!

وجعلت أحملق فى وجهها بعدم مبالاة وأنانية. إننى أعترف..

كنت شـاعرا بشـكل فادح بأننى عقدت صفقـة المغبون فى زواجى هذا.. لماذا؟! هل أنا الخاسر حقيقة؟!

وتأوهت هـى وأنت فى ألم. ثم نظرت إلـى بعينيها الغريبتين وقالت:

– حالا سـأعمل عشـاء. إننى جائعة.. ومتعبة.. سـاعة واحدة ونأكل لحما وخضروات معا.. وبعدها.. لن أسهر كثيرا فى المكتب يا «فكرى».. إننى.. آ..

عندئذ صرخت أنا:

– لا أريد أن آكل.. كل أنت.. شـبعت.. شـبعت.. هل تفهمين معنى شبعت؟!

لم أشـعر أن صوتى كان مرتفعا إلا بعد أن كففت عن الكلام. فقد ساد صمت.. هدوء مستتب.. شامل. أشار إلى الضجيج الذى توقف. فغرت سميرة فمها ثم وضعت كفها على شفتى..

– فكرى.. أنت.. أنت.. تعبان.

هززت رأسى لاهثا:

– .. أنت التعبانة.. لا أنا.. ليس لى عمل متعب.. ولست أحمل مثلك غرورك الذى تسـمينه الطموح.. من أين ستوفرين وقتا جديدا لهذا الغريم.. غريمى!!

هتفت كالملسوعة:

– غريم؟!

صرخت:

– نعم.. كل يوم تخلقين لى غريما..

– آ.. آ..

– نعـم.. التحضير للدكتـوراه غريم سـيأكلك ويأكلنى. ليتنى أستطيع أن أقتله.

عند ذلك انهارت على كرسى الزينة. أسندت رأسها إلى ظهره كما يخبئ طائر رأســه تحت جناحه. وكنت أرى صورتها فى المرأة. عود ضئيل منطو برزت عظام كتفيه وسـمعت إجهاش بكائها. لكننى ظللت منتصبا كجلاد لا يعرف إلا العطش أسائل نفسى فى فترات «عدل» تولد وتموت بسرعة كالفقاقيع لماذا أكرهها؟! ولم أصل إلى الجواب القاطع.

* * *

قامـت هى وفى عينيها دموع. ذهبت إلى المطبخ. ولم ألبث وأنا فى مكانى أن شممت روائح السمن والبصل والتوابل. تصل ممزوجة برنيـن الملعقة على حافة حلل النحاس. وكنـت فى هذه الفترات أشـعر نحوها بحب أصفى.. أشعر أن سميرة التى هناك تعد الطعام امرأة لا عيب فيها.. وأحسسـت بدافع شديد إلى أن أذهب إليها.. وتسللت ودخلت.. سمعت وقع خطواتى فلم تنظر إلى الخلف. ذلك دلال وانتظار أو غضب أو عتاب.. لكن ذلك هو ما حدث. وقبلتها فى عنقها. فجفلت.. ثم نظرت وعلى شفتيها الزاويتين ابتسامة متعبة حملت معانى كانت تريد ريشـة رسـام.. ابتسـامة فيها الخوف والحب والتصميـم والتعب. هى التقرير العصرى عن امرأة فى مثل

موقفها.. واستدارت تكمل الطهى. قلت هامسا:

– سميرة.. لا تغضبى منى..

فلم ترد قلت:

– إذن فأنت غاضبة.. وإذن فسأعقابك وأنام بلا عشاء.

عادت فأدارت وجهها. رأيت عليه نفس الابتسامة. فأحسست بعودة الغضب فقلت مبتهلا:

– أرجوك.. لا تبتسمى هكذا.

فقالت بجد من تكتب تقريرا فى تحقيق:

– «فكرى».. تأكد أننى لن أستطيع تغيير هذ الابتسامة إلا إذا حدث أحد أمرين..

– هما؟!

– أن أغير وضعى أو تغير أفكارك.. لا مفر..

* * *

فتنهدت.. أحسست أن الكلام سليم. غير أننا أحيانا نصبو إلى الكلام غير السليم. ولا يشفى نفوسنا إلا الكلام المريض.

فهززت رأسى. استعدت قولها وتفهمته. لكننى.. أحسست فجأة بالكره.. اختفت «الملعقة» وحل محلها «القلم».. ذلك الذى تكتب به وتسهر لتعمل حتى قبيل الفجر..

وعبثا حاولت ضبط أعصابى. عبثا حاولت أن أتفوق عليها فدخلت

إلى مخدعى مصمما ألا أتعشى..

* * *

لــم أدرك كم من الوقت مر على. كنت أفكر فى الظلام. أســتعيد كل ما فات.. قصة حبنا فى الكلية. هل كنت أريدها لتكمل خمولى بتفوقها فلما صرنا جسما واحدا برأسين.. يعنى زوجين.. لم أر إلا رأسها الذى خطف بصرى بوميض ذكائه فضايقنى. لكن.

ورحت فــى النوم.. لم أحس ما حدث. كل مــا هناك وفى وقت متأخر أحســت بها تتســلل إلى جنبى فى الفــراش وخمنت أننا فــى الثالثة صباحا وأنها قد تعشــت وعملت ثــم أوت إلى مخدعها فاستشــاط فى شــعور حاد لا يمكن إلا أن يكون عناد فقمت وأشعلت نور الحجرة المتوهج..

كانت ذراعاها على وجهــها والتعب باد عليها ففتحت عينيها وسألت بهدوء فاتر:

– ماذا هناك؟!

– لا شــىء.. غير أنى أريد أن أعرف قصدك.. ما معنى ما قلته فى المطبخ أن «تغيرى وضعك أو أغير أفكارى».

لــم تغير وضعها فــى الفراش. بدا على وجهــها ملل أم أضناها صراخ طفل. لا شــك أنها لا تزال تحبنــى.. ومع هذه المعانى التى تكلم بها وجهها رفت فى عينيها لمحة تسامح.. مدت إلى ذراعها المتعبة وقالت بتهالك:

– أرجوك.. من الممكـن أن «نؤجل القضية» وقتا آخر.. تعال.. هل تحب أن أعتذر إلى من يبخل على بساعة نوم؟!

أطفأت النور وصدى جملتها الأخيرة يملأ أذنى.. وبقوة سحرية سـرت إلى قلبى صعدت إلـى الفراش فاترا. وفـى ظلمة الحجرة. ودفء الصوف وأنفاسـها التى لامست خدى أحسست أننى أعاقب فيها فشـلى.. تخلفى سنة عنها.. نجاحى بدرجة عادية.. أما هى فكانت تحافظ على أشياء كثيرة أهمها فيما يبدو من معاملتها وعدم مجاراتى فى الخصومات أنها تريد أن تصل إلى قمة نجاحها ولعلها قد اكتشـفت فى صمت – بينها وبين نفسـها – أن سر تقديرى لها كان تفوقها العقلى. فهى تقاتل فى سبيل المحافظة عليه كما تقاتل الممثلات فى سبيل سلامة وجوههن من غزو تجاعيد السنين.

وضعـت ذراعها علـى عنقى. تريثـت قليلا فلـم أبادلها نفس الحركـة. كنـت أفكر فى هـذه اللحظة فى زميلى فـى المكتب.. زميـل أكبر منى سـنا ودرجة يأتى كل يوم شـاكيا من امرأته التى وضعت لابنها قطرة لم تعرف أنها صبغة يود، والتى تركته يشرب لترا من الجاز وهى مشـغولة بقتل الوقت عند جارتها.. تنهدت.. أحسسـت أننى أعادى فيها شيئا لم أحاول تحقيقه لنفسى. فربتت على خدها فإذا بالندم قد أخذها منى تماما. وإذا بالساعة المعهودة تدق الثالثة..

ودق قلبى فى تعاطف.. حكمـت بالعدل لأنها نائمة.. فلم تكن طرفا فى القضية. شعرت كأننى أتكلم وحدى..

أترافع وأحكم.. أنا الخصم والحكم..

ثم رحت فى النوم..

وفى الصباح الباكر استيقظت على نفس الصوت. ضريبة الأمومة.. القىء المتشنج.. فهببت من فراشى وقمت إليها أسندها.

ثم عادت تبتسم. عتاب وتعاطف ونهى عن الظلم.. بسمة تريد رساما.. تحمل ملامح امرأة حديثة. وفى طريقنا إلى الحجرة رأيت مائدة أمس.. كان عليها أطباق مغطاة.. رفعت أغطيتها فإذا بالعشاء الذى أرادت أن أشاركها فيه.

– قد بات دون أن تمسه يد..

هفوت إليه بسرعة. كانت فى المطبخ تريد أن تعد شيئا للفطور.. وشايا.

فقلت:

– سميرة.. هل نمت بلا عشاء؟!

نظرت إلى وقالت:

– هل ترى ذلك على وجهى؟!

– بل رأيته على المائدة.. أما وجهك..آ..

ولم أكمل لأنه كان شاحبا جدا إلى حد أننى أحسست أننى ساهمت ليلة أمس على متاعب العمل فى كل ما جرى لها..

أما اليوم فإننى سأحاول أن أفهمها من جديد.. أرجو أن أنجح..

ظلال الليل

الأكوام المتباعدة المغطـاة بقش الأرض يفصل بين الواحد منها والآخـر مدى ليس بالقصير. على رقعة الحقل السـوداء المحروثة تحت جنح ليل شـهر «يناير» وليس فى السـماء قمر ولكن.. فيها سحاب.

وعند سـفح أحـد هذه الأكوام رجل سـاهر. خبـت أمامه النار التى أشـعلها فلم يبق منها إلا الرماد. ولم يبق معه سيجارة واحدة يدخنها تساعده على السهر والحراسة عند أكوام البطاطس. وحتى علبـة الثقاب بللها ندى الليل. بعدما نسـيها إلـى جواره فلم يعد جنبها الأسود صالحا للاشتعال بسهولة. وليس فى الحقول صوت. لا ضفـادع فى الشـتاء ولا ناى ولا أرغـول. كان الريف داخل ضمن ما يسـمى «البيات الشـتوى» ولو كان هناك قمر ما غاب السحاب.. وكل شىء مستكن. سـوى صوت واحد يصل إلى أذن هذا الرجل هو صوت ماء ينصب فى خمول من حقل مرتفع فى مصرف ماء منخفض ينصت إليه الرجل قليلا ثم يعود إلى أفكاره..

تمنـى لو أنه لم يزرعهـا هذا العام. إنه فلاح بسـيط لكن حبه للتجربـة دفعـه إلى أن يزرع هـذا الفدان. على حيـن أن أحدا من جيرانـه لم يقدم على هذا. لكنه علـى كل حال ضامن لرأس المال.

لكن سهره فى نظر نفسه يساوى الدنيا وأرضها. لأنه مريض بالكلى وليلة واحدة من هذا النوع ربما أودت بحياته. فضلا عن شىء آخر هو أنه بانتظار ابنه.. لقد وعده بأنه سيتعشى ويعود ليأخذ مكانه فى الحراسة ويرجع الأب إلى الدار لينام فى الدفء لكن.. شيئا من ذلك لم يحدث. وها هو ذا الأب لا يزال فى مكانه فى ظل تلك الكومة الكبيرة المغطاة بالقش. والتى تبدو فى الظلام لعينيه على هيئة تل من الرمل أو جمال رقدت بلا صوت.

وأخذ الأب يفكر: لماذا لم يعد ابنه؟! ومن خلال ضيقه منه وقلقه على عودته وأيضا من خلال وخزات خفيفة لمست جنبه الأيسر – تصور أن ابنه غارق فى سعادة أنسته والده.. والحقل.. والمحصول.. والحراسة. ثم.. تصوره غارقا فى النوم بعد ذلك فى الحجرة الشتوية الخالية من النوافذ تلك التى يدفئ جوها بخار الحساء فى أول الليل ثم بخار الماء البائت على الفرن ليكون تحت أذنه فى الصباح.

وتنهد الأب. وأرهف سمعه.. تمنى أن يصل إليه فى الظلام البارد صوت ما. ولكن صوت الماء المنصب فى المصرف كان قد سكن.. وهمد كل شىء فشعر بتوتر السكون وضجة الصمت. فتنحنح وخيل إليه أنه على وشك أن يغنى أو أن يقرأ دعاء. لكنه خجل وتحسس جنبه وهو ملفوف بغطاء من الصوف الثقيل وتحسس عصاه الغليظة ثم تحسس قلبه. لمس صدر نفسه لأنه شعر بالخوف. شعر

رأســه كان يقف كأنما عاد طفلا يجسم كل ما سمع من حكايات الجن والذئاب والثعابين لكنه.. ليس الآن طفلا. إنه فى الخمسين من عمره. وعلى كفه الخشنة نضجت وجمعت ملايين الثمرات. ليس البيات فى الحقل بالنسبة إليه شيئا مخيفا. فقد قذف به والده فى هذه المعمعة وهو صبى لم يتجاوز العاشــرة.. سهر فى حراســة الذرة ولم ينم من الخوف.. وها هو ذا الليلة كأنه نفس الطفل.. والدنيا سكون..

وألفى نفســه يغنــى أغنية كان أبــوه يرددها وهــو جالس عند الســاقية وبين كفيه حبل يفتله. وعندما ســمع صوت نفسه دهش. إنه محشرج كئيب. وعلى كل حال فإن سماع المرء لصوت نفسه أمر يوجب الخوف كالتائه فى الصحراء أو المنادى ولا مجيب.

عندئــذ قرر أن يقوم من مكانه. وكان قد فقد الأمل فى عودة ابنه إليه فنهض. واتجه نحو الجنوب ليلقى نظرة على بقية المحصول. لكنــه لم يســر بضع خطوات حتى أحس بشــىء غريب. أحس كأن أحدا يشد طرف البطانية التى تغطيه وهو سائر. لكن هذا الإحساس لم يســتول عليه بل تخلص منه ببســاطة حين استرد طرف غطائه مما يشــده. وكان همه كله أن يمر ويعود ليســتغرق فى النوم بعدما فقد الأمل فى رجوع ابنه إليه.

واستمر فى ســيره. لكنه بعد برهة شعر بأن شيئا ما قد تشبث بطرف غطائه كأن يكون وتدا مثبتا فى الأرض فشــبكت به أطراف الغطاء. حاول الرجل أن يخلصه فإذا به يتحرك وراءه.

عندئذ أخذته الدهشـــة. أحس كأن يد طفل تعابثه فالتفت خلفه فإذا بأســطورة الحقل والحراسة تتكرر. حين وجد نفسه وحيدا فى الخلاء أمام ذئب كان ممسكا بطرف غطائه كأنه ينبهه لوجوده فى الحقل.

ولــم يكن مع الرجل إلا هراوة غليظة. وحتى لو كان معه بندقية فإنه لابد – كما هو معروف – أن يتردد ألف مرة فى أن يطلق عليه النار.

وللوهلة الأولى شــعر بحاجة إلى الاستغاثة لكنه استكبر ولأنه كان علــى علم بأن صوته ســيفنى فى المزارع ولــن يصل إلى أحد.. فالفلاحون أنفسهم فى «البيات الشتوى» فى الحجرات المغلقة التى لا يصل إليها صوت حتى ولو كان صادرا من ساحة الدار.

وتذكر ابنه وهو ينظر إلى عدوه المســترخى فى قوة الزمبلك ثم تذكر ما كان يحكيه الفلاحون عن أمثال هذه المواقع فحاول جاهدا أن يظهــر عــدم المبالاة لأنهــا أول خط من خطوط الدفــاع أمام هذا الوحش.

واستمر يمشى لا ينظر وراءه. وكان الذئب بطبيعة الحال يتبعه خطوة بخطوة لكنه لا يســمع وقــع أقدامه. بل كان يعرف ذلك بين الحين والحين من شده للغطاء فى مداعبة ثقيلة.

وعندما وصل إلى آخر الحقل فكر فى مواصلة الســير نحو الدار لكنه وجد أن البقاء أقل مخاطرة فإن عودة ابنه التى لا تزال محتملة

«على الأقل فى هذه اللحظة» منجاة له من الخطر، ثم هناك وسائل للدفاع لا يمكن أن يستعملها وهو سائر، لذلك ولى وجهه عائدا إلى حيث كان يمشى فى طمأنينة جعلت الذئب يقعى على مقربة من الطريق وكأنه يفكر فيما سيفعل.

واتجه الرجل إلى الشمال وتركه خلفه. كل خطوة يخطوها يتخيل بعدها أنه سيثب فجأة على كتفيه. لكن شيئا من هذا لم يحدث. وحتى طرف الغطاء لم يشد. حتى وصل الرجل إلى مرقده الأول. ولم يتفاءل بل جلس يستعيد كل وسائل الدفاع فهو يعلم تماما أن الذئب يستكشف الطريق قبل أن يعود إليه حتى إذا ما تأكد أنه خال من رائحة إنسان نزل إليه فى الحقل.

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بدليل أن قطار البضاعة المعروف يمر على شريط السكة الحديد من بعيد ويقلق السكون كمبان تتداعى على نظام واحد. وأخذ الرجل يفتش عن مكان فى علبة الكبريت.. مكان جاف يشعل فيه عودا بعد أن كوم أمامه شيئا من الحطب.

وفجأة اشتعل العود وأضرمت النار وبدأ نورها المتحرك يقع ثم ينسحب تباعا فوق المرئيات ومن فوقها. وتنهد الرجل ارتياحا ونظر خلفه فإذا الوقود كثير. وإلى أن ينفد سيحدث شىء ما فإما أن يجىء ابنه وإما أن يطلع الفجر وفى أحد الأمرين نجاة له.

لكنه نظر فإذا حمرة اللهب تقع على وجه الذئب. ولف الذئب

ودار ثم عاد إليه وأقعى على مقربة منه. وكان يعرف أنه من المحال أن يفترس المتربص له ما دام ساكنا أمامه ويعرف أنه يخاف من النار والماء فقرر ألا يتحرك وألا يجعل النار تخبو.

لكنه رأى فى تربصه شيئا مخيفا فأخذ يقذف بكرات من الطين يصنعها من الأرض الرطبة وبقطع من النار بمسكها بكفه فلا يحس بلهبها. وكان الذئب يحيد عنها فلا تصيبه بمرونة وخفة تبعث الخوف فى القلب أكثر وأكثر.

وبعد عدة مرات أحس أن عضلاته بدأت تتحرك وهو مكانه وأحس كأن تيارا من الغضب سرى فى جسم الوحش فقرر أن يكف قليلا عن رميه بالجمر. ولكى يبدو له أكثر طمأنينة ليقضى على خطته سحب رغيفا من الخبز وأخذ يقضم منه. يحرك النار بيد ويقضم الخبز بيد أخرى وعندئذ بدا على الذئب شىء من القلق كأنما شعر أن عدوه غير مبال به فدار حول نفسه عدة مرات وعاد واقفا ينظر إليه لكن الرجل رمى إليه بلقمة من الخبز مال إليها والتقمها ثم عاد ينظر إليه بعينين باردتين تقولان فى وحشية صامته أن الوقت أمامنا طويل.

وفكر الرجل: لو أنه رمى إليه بالرغيف لأكله ثم عاد إلى مناوشته وكأنه لم يفعل شيئا.

وعندئذ فقد الرجل صوابه.. لم يحس بالطريقة الغريبة التى يتحول بها الإنسان إلى وحش. لم يشعر بما حدث منه. كل ما أتيح له يشعر به أنه مد يده إلى طبق من الصاج كان فى سفح الكومة. دسه

تحت النار فى سرعة ووثب به فجأة على وجه الذئب ورماه به.

ولم ير ما حدث فقد كان كل همه ألا تنطفئ النار ولو أمدها بغطائه الصوفى.. ولو أمدها بكل ما يغطى المحصول من قش ولو أن بعضه ندى لا يصلح للوقود وكان عليه أن يتحضن بها وكان فى هذه اللحظة يميل مرة أخرى ليملأ الطبق بنار جديدة لكنه فوجئ بأن سمع عواءه شاكيا وهو يول الأدبار.. عواء وحشى مجروح فأيقن أن النار قد مست عينيه إحداهما أو كلاهما. فجرى وهو يعوى.. حتى دخل فى منطقة الظلام فلم يستطع أن يحدد موقعه بعد أن انقطع عنه صوته.

لكنه فكر بحيلة الفلاح.. ربما يكون رابضا فى مكان قريب لكن الوقت مر ولم يعد.

وأحس كأنه يحلم لكنه فتح عينيه. رأى نورا خفيفا يبدد ظلمة الأفق ونجوما تتوارى. ونجوما ظهرت لم تكن فى السماء من قبل. أدرك أن الفجر قريب وأن النور على وشك أن يظهر وأنه قد نام وهو جالس وقتا من الزمن.

وسرت الطمأنينة فى أوصاله عندما أحس هذا الإحساس وسمح لجسمه أن يستلقى على كومة البطاطس لكن عينه لم تغف فقد شعر بأن إنسانا ما على مقربة منه فى الجانب الآخر من الكومة يحسر القش عن المحصول برفق لكى يسرق منه شيئا.

ولم يشأ أن ينهض.. ظل راقدا كما هو مستمتعا بما يحدث قائلا فى نفسه: «إنه سيأخذ مقدار ما سيحمل ولا شك فى ذلك.. فليس معه

عربة ولا جمل.. وابتسم.. ومن أجل هذا جئت أصارع الذئاب بالليل؟».

وظل ينصت حتى انقطع كل صوت فأخذ يحملق بما يتيحه له نور النجوم فرأى رجلا يحمل جوالا صغيرا على كتفه وقد سار يعرج به. فعرف من يكون.. إنه سليمان الأعرج المهرج المشهور فى القرية والذى يحيى لياليها وأفراحها بالضحك.

ولما رآه تذكر الذئب.. والصراع الذى قام بينه وبينه طوال الليلة الماضية وسأل نفسه عن السبب فسمع صوتا فى داخله يقول: «لو أن هذا الذئب استطاع فى الليلة الماضية الحصول على زوج من الأرانب من إحدى الحظائر».

لكنه أمسك عن التفكير فقد كان الأعرج لا يزال على مقربة منه. فقد عثر فى شىء ما فسقط بالكيس وسمع سقطته على الأرض.. وحدثته نفسه أن ينهض ليأخذ بيده فى رفق وسخرية ثم يزيد من حمله لكنه أحس بآلام شديدة فى جنبه تكاد تمنعه عن النهوض فعاد مستقرا حيث كان. وأخذ الأعرج يجمع ما سقط منه وعاد يواصل السير.

وكأنما كانت هاتان الحادثتان مخدرا قوى السطوة نام بعدهما الرجل نوما عميقا. فلم يشعر بنور الشمس ولا أصوات الناس فى الحقول. بل كان مثل نائم فى كهف. ينتقل من حلم إلى حلم وكل أحلامه تدور حول أفواه مفتوحة.. بعضها لسمك وبعضها لجمال

يطعمهـــا أصحابها وبعضها لطفل مدلل تطعمـــه أمه وبعضها لطفل آخر يبكى ويلتفت.

وأخيرا.. الذئب يتربص على مقربة منه.

فاســـتيقظ مذعورا.. كان نور النهار وأشعة الشمس تفرش الدنيا ببساط من الذهب والدفء يشع فى كل مكان وحبات الندى على قش الأرز تلمع فى تألق ماســـى يتنافى مـــع جفاف القش. والخضرة فى الحقول زاهية لا تعترف بآلام أحد..

وتذكـــر الأب كل حـــوادث الليلة الماضية ونهـــض وتمطى لكنه عندمـــا تذكر أن ابنه لم يعد إليه حتى هذه الســـاعة بدأ قلبه يخفق فى قلق أنساه حنقه عليه.

وعند باب الدار لقيته زوجة ابنه وعلى وجهها اعتذار وانكسار. فقد كانت فى الطريـــق إليه لتطلب منه العودة لأن ابنه بات صريع الملاريا طوال الليلة الماضية.

– منذ متى يا سكينة؟

– ذهب إليك أمس بعد العشـــاء. فقطع عليه الطريق ذئب فنزل إلـــى الترعة لكى ينجو منه وعاد إلـــى الدار خوضا فى الماء العميق حتى إذا وصل إلى القرية حرســـته الكلاب ورجع الذئب لكنه بات محموما طوال الليل.

نظر إليها الأب نظرة طويلة لم تطرف معها عينه فظنت الشابة

أن الأب يتهمها بما وسوست به نفسه فى الليل. ثم ابتسم الأب فسألته سكينة:

– ماذا يا أبى؟

فاجاب:

– لا شىء.. لم يكن هناك ما يستحق كل هذا العذاب.

* * *

وفى هذه اللحظة مر عليهما سليمان الأعرج يبعثر النكت فى كل اتجاه وألقى التحية بمودة وشوق.

فرد الأب عليه التحية..

ثم دعا الله من أجله..

* * *

زفاف إلى الجنة

فى قريتنا رجــل غنى وحيد يأكل بملاعق من الفضة ويدخن فى «مبســم» من الذهب. ويحاول دائما وهو يدخن أن يتشاغل بعمل ما أمام الناس فى «المضيفة» لكى يهمل مبســم الســجاير بين أسنانه وتكون هذه الحركة الأولى لتعقبهــا حركة ثانية ضرورية ولازمة ترضى فى نفســه نزعات حاولت أن أفهمها فلم أستطع. فهو عندما يهمل مبســمه الذهبى ويضغط عليه بأســنانه نراه وقد ضحك لأى ســبب. وهنا يشــتغل فمه بريقا.. لأن له عدة أســنان قد كســيت بطرابيــش من «البلاتين» وتلتقى المعادن النفيســة كلها فى فمه.. فضــة وذهب وبلاتين. لكنه حين يتكلم يظهر التناقض جليا بين ما يدخل فى فمه وبين ما يخرج من فمه.

لكنه مع ذلك لا يعدم جلســاء أفاضل. بعضهم سماســرة حبوب وبعضهم تجار مواشــى وبعضهم زراع خضــروات. وأخيرا.. فيهم شاب حديث الســن مشهور بطول اللسان. كأنما اختاره هذا الرجل الغنى ليكون فى هذه المجموعة الموافقة له ســلفا على كل ما ينطق بــه – اختاره ليشــعر بلذة هجوم الآخرين عليــه ممن التفوا حوله لمصالح متقابلة أو قرابة أو مصاهرة.

وكثيرا ما سأل الناس أنفسهم: لماذا يكلف «محمود» نفسه عناء الجلوس مع هذا الرجل ما دام الخلاف فى الرأى بينهما لا يغيب. لكن «محمود» كان يأنس فى نفسه القدرة على تغيير شىء من سلوك هذا الرجل وفى الوقت نفسه فإن الرجل نفسه كان واثقا أن المستقبل معه، فهو حتما فى يوم ما سيطفئ حماسة هذا الشاب وسيجعل خلافاته وآراءه أشد إيغالا فى القدم من «عزوز» سمسار الحبوب و «جابر» تاجر المواشى و «عبده» زارع البطاطس.

وبما أن ليل الريف شهير بالطول فكثيرا ما يذهب الناس لكى يقطعوا هذا الليل إلى أماكن قد لا يحبونها كثيرا. لذلك فإن مضيفة هذا الرجل لا تلبث بعد المغرب بقليل أن تمتلئ بكثير من الناس. وهناك يدور أحد الفلاحين المسنين بصينية صف عليها أقداح الشاى الصغيرة وترتفع رشفات الفلاحين فى المضيفة أزواجا وأفرادا تحت طبقة رقيقة من دخان السجاير وطبقة كثيفة من النوادر والضحكات.

وفى ليلة من الليالى المائلة إلى البرودة. الشديدة الظلمة المنذرة بالمطر. وبعد مرور ساعة من الزمن على اجتماع الفلاحين فى المضيفة هتف صاحب المضيفة من بين أسنانه البلاتينية ومبسم السجائر الذهبى حبيس بينها – هتف سائلا الجمع:

– الله!.. ألا تلاحظون الليلة على مجلسنا يارجال؟!

وتلفت الجالسون فى كل ركن.. نظروا على كل كرسى وكل كنبة ثم نطقوا.. نطق منهم ثلاثة أو أربعة قائلين:

– آه.. «محمود» غائب يا أبو عاشور!!

فضحك وضحكوا ورد صاحب الدار معلقا بطريقة من يلذ له أن يصارع الخصم طويلا ثم يقهره:

– الجلسة الليلة فاترة.. ينقصها هذا الولد.. إن شغبه هو الفلفل الذى يوضع على السلطة.. يجعل للمكان طعما.. ربما كان حراقا لكنه.. لذيذ!!

وأمن على هذه الحكم مع طقطقة حبات السبح كل من سمسار الحبوب وتاجر المواشى. فقد كانت الذرة الصيفية على وشك أن تقطع وأبو عاشور فى حاجة فى هذه الأيام إلى شراء ثور جديد..

لكن.. ما لبث الحاضرون أن انتبهو إلى حدث وقع.. إلى محرك سيارة يتوقف على مقربة من الدار ثم ساد صمت.. وعندئذ أخذ قلب عاشور يدق بعنف. وأخذ كل رجل من الجالسين يتذكر جرائم القرية. وغطى القلوب وجل وبدأ الجمع يتحدث بالنظرات.. وأخيرا تحرك أحد الجالسين وفى نيته أن يخرج ليرى ماذا هناك وعندئذ حال بينه وبين رغبته صاحب الدار معلنا بصوت لم يخل من الرعشة أن «من دخل فيما لا يعينه لقى ما لا يرضيه»..

وعلق أحد الجالسين قائلا: إن الشر أو الخير إذا كانا على الباب فلابد أن يدخلا..

ولم يكد الرجل يتم عبارته ويأخذ جلسته الأولى المستريحة على الكنبة حتى أبصر الجمع بالشاب «محمود» يدخل من الباب.

ولما رآه صاحب الدار سارع بسؤاله عما هناك فما كان منه إلا أن ألبس الموقف ملابس ضافية ومثل دور من يشعر بخطر مفاجئ قائلا لصاحب المضيفة:

– إنه «بوكس» الحكومة يا أبو عاشور ووقف هناك على بعد مئتى متر من بيتك ونزل من فيه.. لم أر شيئا يدعو إلى الخوف.. لكنهم على كل حال يتهامسون هناك.

كان الشاب يعرف ماذا هناك لأنه سمع ما دار بين الرجال الذين كانوا فى سيارة الحكومة. لكنه لم يشأ أن يبوح به للجالسين فى مجلس أبو عاشور وكان عاقدا عزمه على أن يرى صاحب المضيفة وهو عار من جاه ماله الذى يرتديه أو يخلعه عليه بعض مجالسيه. وجلس الشاب بينهم يتلفت حتى أوهم الجالسين بقرب قدوم خطر، ثم ما لبث الجالسون أن سمعوا أحذية ثقيلة لعساكر يتقدمهم مأمور المركز فى ملابس مدنية دخلوا على الجالسين فى المضيفة وسلموا وقعدوا. وقام صاحب البيت يدور بعلبة السجائر ودخل عليه الرجل المسن الذى يعمل القهوة فطلب صاحب الدار شايا وقهوة وقرفة على ثلاثة أدوار. ثم تعالت فى المجلس بعض سعلات ونحنحات ما لبثت أن خفتت ليظلل الصمت. وأخذ «محمود» يحملق فى صاحب الدار ذلك الرجل المتكبر على طريقة أهل الريف الذى يأكل بملاعق من الفضة ويدخن فى مبسم من الذهب ويكسو العديد من أسنانه بطرابيش من البلاتين. نظر إليه فألفاه جالسا وقد غمره

الخوف فى الوقت الذى سمع فيه أحد الخفراء يجرى إلى قرية أخرى مع أحد العساكر فى مسيرة ربع ساعة. ولم يكن أحد يعلم إلى أين ذهبوا. وبدأ المأمور يتحدث بطريقة رجل يريد أن يبدد الوقت.. رجل مشغول بما هو أهم ولا يزال فى انتظاره ووقته لم يحن بعد. لكنه سيحين بعد قليل. فتحدث عن المبيدات الحشرية وخرام البطاطس وعن جمال الأمن فى ربوع الريف وأسعار السكر ورؤية هلال رمضان.. أشياء دون العادية وحديث لا هدف له إلا قطع الوقت لكن أبو عاشور لم يكن يصدق كل هذا. حتى تصور أنه ارتكب جريمة. وقال «محمود» متعمدا:

هل قرأتم حادثة اليوم فى الجرائد؟!

وردت أصوات كثيرة:

– لا..

ونظر إليه المأمور فألفاه شابا يتخلف فى مظهره عن الجالسين جميعا وكانت كلمة «حادثة» جديرة بأن تلفت نظره كرجل من رجال الأمن. وبعدها سأل الشاب قائلا:

– ما هى؟.. لعلى لم أقرأها يا بنى؟!

– فى إحدى قرى شمال الدلتا ادخر رجل ثلاثة آلاف جنيه فى قدر من الفخار..

قاطعه صاحب الدار هاتفا بسرعة:

– وسرقت؟!

فرد الشاب:

– لا.. شب فى بيته حريق فانشغل عن الهرب بالبحث عنها.. وأخيرا حملوا بقية النقود.. بقايا غير صالحة للاستعمال.

وعندئذ بدأ المأمور يعلق على الجرائم التى تحدث عادة من أمثال هذه التصرفات عن الأموال المدفونة والنفوس الشحيحة وأطنب فى الحديث فاضطرب قلب الغنى وأخذ يفكر فيما عسى أن يعمل لو حدث له نفس الشىء جريمة أو حريق.

وكان الشاب يضحك محاولا أن يعيد تفاصيل دقيقة لهذه الحادثة التى اخترعها ليفسد على الرجل أمنه وهو فى ساعة خوف واضطراب قلب.

ثم ما لبث المأمور أن خرج بعد أن أصلح أحد الميكانيكيين خلل السيارة التى توقفت مصادفة على مقربة من دار أبو عاشور وبعد أن ذهب أحد الخفراء لإحضار الميكانيكى.

* * *

وبعد هذه الحادثة لسبب أو عدة أسباب كف صاحب الدار عن مقابلة الناس. شعر بميل إلى العزلة.. أحس أن أمنه وماله سيكونان نهبا للناس والنار، واستوطن فى قلبه هذا الشعور وأخذ رواد المجلس يسألون عنه من وراء الباب ثم يعودون. إنه يشعر بقرف ولا يريد أن يرى أحدا. ثم تحولت هذه الحالة إلى مرض

حقيقى جسمانى. ثم عاده الطبيب وبدأ الناس يعودونه فى فراشه.. فــوق فى الدور الأعلى.. ولأنــه بطبيعته لم يعتد مثل هذه الأحوال فقــد دخل فى دوامة حتــى أن الأرض كانت تدور به كلما داســها بقدميه.

وبدأ يشــعر بالجزع. اعتــراه خوف لا مثيل لــه. وتذكر أمواله المدفونة وحاول أن يرشد إليها أبناءه لكنه خاف أن يطول به الأجل فيقع فى مشــلكة أنهم عرفوا مكان المــال. ثم.. صمم أخيرا على أن يســكت.. لكنه عاد فخاف أن يفاجئه الموت وتظل الأرض صامتة لا تنبئ عــن مكان المال.. وفى أخريات إحــدى الليالى بعد أرق الألم أخذته ســنة من النوم.. شــعر أن الفراش يهتز بــه مثل أرجوحة طفــل.. غمره خوف شــديد لم يدر حقيقه مصــدره.. لعله حلم. إنه يحفر بكلتا يديه والعرق يتصبب منه ليطمئن على ماله المدفون..

حفر.. ونســى أنه مريض فخر متعبــا بجوار القدر. إنه يحاول أن ينادى لكن الصوت يخرج من فمه عاجزا عن أن يسمع أحدا. وها هو ذا يشــعر بالظمأ الشــديد فخيل إليه أن القدر ملىء بالماء لكنه عندما وضع شفتيه على شفة القدر وجد فخارها خشنا جافا قاسيا.. وتمنى فى هذه اللحظة لو يتحول ما بداخلها إلى ماء حتى يشرب.. شربة واحدة أو يرتوى.

وســمع طلقا ناريا أيقظــه من عذابه. كان من أحــد خفراء الليل الذين يحرســون حقوله. وجلس فى الفراش يفكر فى سنه المتقدمة

وحرصه ودورانه حول نفسه.. وفى كل حجرة من الحجرات السفلى فى داره زوج وزوجة.. هم أبناؤه ينتظرون أن تزف إليهم البشرى فيقابلونها بالعويل.. ذلك شىء تقليدى. ولو استطاعوا غير هذا لفعلوا. وفكر.. ولماذا يحنقون على؟! ثم فسر لنفسه أفكاره فكل الناس عنده إما غيور وإما حاقد وإما منافق.. وإما. وارث. كلهم أعداء. لكنه شعر بشوق إلى الصحة فلو أنه عاد سليما معافى لفعل أشياء رائعة ترضى الله وتسر الصديق وتكمد العدو.

وبحث عن القبلة. . واتجه إلى الله ونذر له نذرا إن شفاه ليفعلن فى سبيله شيئا يرضاه.. شيئا غريبا نادرا.

وكان فى حقيقة نفسه راغبا فى الحياة. لم يدع نفسه تستسلم نهائيا للمرض. تعلق بخيط نجا به ولو أنه كان واهيا جدا.. لكنه نجا..

* * *

وما لبث النور أن عاد إلى المضيفة. جلس أبو عاشور بين أصفيائه تاجر المواشى وسمسار الحبوب وزارع البطاطس يضغط بين أسنانه البلاتينية طرف المبسم الذهبى ويضحك من بين أسنانه وجمرة سجارته تتوهج محاذية لأرنبة أنفه. وتكلم:

– خمسة شهور يا رجال منذ مرور «بوكس» الحكومة على هذه المضيفة.. خمسة شهور وأنا مريض.. من كان يظن؟!

– سلامتك يا أبو عاشور..

وتلفت. كان مثل رجل يريد أن يفضى بسر لأحد. شعر الجميع بأن شيئا يثقله. وعندما فرغ من قياس المضيفة بعينين سأل:

– أين الولد الشقى «محمود»؟

– هل حننت إلى المشاكسة من جديد «وضحك الذى يتكلم» الحمد لله فذلك دليل على اكتمال الصحة يا أبو عاشور.

وعادت جمرة السجارة تتوهج ثم أخرج الرجل مبسمه من فمه الملىء بالمعادن النفيسة ثم قال:

– من منكم جرب المرض حتى الوقوف على حافة الموت؟.

فلم يرد أحد. كأنما الجميع قد خافوا من فأله السيئ غير أنه استطرد قائلا:

– لقد نذرت لله نذرا هو إن شفانى أن أعمل عملا عظيما يسر عباده أجمعين. ما رأيكم؟!

عندئذ ارتفع صوت شاب منطلق جميل النبرات يحيى الجالسين، وهللوا حين رأوه:

– ها هو ذا شيخ المشاغبين «محمود».. قد حضر.

وسلم الشاب وجلس. وأعاد الرجل ما كان يقوله. وبدأ يأخذ الاستشارات فقال تاجر المواشى:

– أحسن شىء يعمل يا أبو عاشور هو أن تشترى عجلين سمينين وتذبحهما وتوزع لحمهما على سكان القرية.

وهز الرجل رأسه يتشرب الفكرة وتغامز الحاضرون: «بارك الله فيمن نفع واستنفع»، وكان صاحب الدار لا يزال فى صمته.

ونظر الشاب «محمود» إلى تاجر المواشى وقال له:

– يقول المثل: «عشــوة ليلة قريبة مــن الجوع» يعنى ممكن أن يستغنى كل فرد من الذين سيهدى إليهم عن هذا ويحول المبلغ إلى مشروع نافع للناس.

عندئذ ارتفع صوت سمسار الحبوب قائلا:

– تاهــت ولقيناهــا.. إن المولد النبوى على الأبــواب فلماذا لا أشــترى لك بضعة أرادب من الأرز وتــوزع على كل دار منها قدحا بمناسبة شفائك ومولد النبى؟! يأكلون ويدعون لك!!

وهز صاحب الدار رأسه يتشرب الفكرة. وتغامز الحاضرون وكان صاحب الدار لا يزال فى صمته. ونظر الشاب إلى السمسار وقال له:

– إنكم لا تذكرون إلا أنفسكم.

وفى هذه اللحظة دخل الفقيه الكفيف عصاه تســبق خطاه وفمه يهمهم بما لا يســمع ولما تناهى إليه عن طريق وشوشة أحد الذين جلــس إلى جوارهم مادار فى المجلــس قبل حضوره ضحك ضحكة عالية كانت بمثابة نداء لصاحب الدار فقال أبو عاشور:

– خير.. هذا الضحك سببه خير يا شيخ رضوان إن شاء الله.

– لفرحى بشــفائك.. آه.. لو ســمعت كلمة عبــد فقير ما دمت تستشير عباد الله.. توكل على الله وابن مسجدا.

هز الرجل رأســه يتشــرب الفكرة وأشعل ســيجارة جديدة فى المبسم الذهبى ودســه بين ثناياه البلاتينية وظلله الصمت وتغامز الحاضرون ورفع «محمود» عقيرته قائلا:

– إن المســاجد لله يا شــيخ رضوان.. وعندنا فى قريتنا الصغيرة اثنان منهــا.. لكنك لم تختلف كثيرا عن سمســار الحبوب وتاجر الموشى لأنك تبحث عن نفعك الشخصى..

وانطلق الفقية يشتمه: «إنك تهرف بما لا تعرف.. ماذا لو كان عندنا مائة.. أقسمت بالله ما أنا جالس فى مكان يجلس فيه الصغار أمثالك».

وخرج. وبدأت تعليقات متناثرة قطعها «محمود» بشجاعة قائلا للرجل:

– ابن مدرســة تعلم فيها أبنــاء بلدك. بلدنا صغير وفقير وليس فيه مدرســة واحدة.. أولادنا يذهبون إلــى القرى الأخرى فى حر الصيف وبرد الشتاء.

رد السمسار وتاجر المواشى ورجل ثالث فى نفس واحد:

– وأنت الآخر تبحث عن مصلحتك الشــخصية لأن أحد إخوتك غرق فى العام الماضى وهو فى طريقه إلى المدرسة البعيدة. تمام؟!

وعندئذ قام الشاب ثائرا ونظر للرجل الغنى وقال بأعلى صوته:

– أتريد أن تعرف؟.. ابن ســجنا إذا استطعت فذلك أقرب شىء إلى ميولك.

وخرج.

* * *

رأى سـكان القرية فى شهر أغسـطس عمالا كثيرين قد حشدهم أبو عاشـور يعملون على نفقته. واجتمع الناس يسألون عن الخبر. إنهـم يردمون قطعة مـن الأرض منخفضة عن المزارع يتجمع فيها ماء الرشـح فى أواخر الصيف بعد موسـم الفيضان. وفى نهاية هذه الرقعة تقع مقبرة القرية.

وعندما يكون الفيضان عاليا قد يحدث أن يخوض الناس بموتاهم ماء الرشح إلى المقابر التى قد تكون نشعة أيضا.

لذلك فقد فكر «أبو عاشور» فكرة إنسانية هى أن يبنى عدة مقابر لله تعالى..

فجلـب العمـال والبنائين ليـردم وليبنى مقبـرة على الأرض الجديـدة. على أن يكون له فى وسـطها بناء مزخرف مرتفع تظلله أشجار التوت والنخيل.

ولغط الناس بالخبر واختلفوا. ذهل بعضهم وضحك بعضهم ونقم بعضهم. لكنه كان وافقا بعصاه ومبسـمه الذهبى يرقب سير العمل ويقول:

إنه يبنى بيوت الآخرة له وللناس..

ورد أحـد العمال سـاخرا: «من مالك افعل ما بـدا لك يا عم أبو عاشور»..

وبعد أن سـار العمل خطواته الأولى لتقوم المقبرة الجديدة التى شـرع فى بنائها وافتـه المنية فجرى الأبناء نحـو المكان ليوقفوا المشروع. ثم حملوا جثته إلى المقبرة النشعة وخاض الفلاحون بها ماء الرشح لكى يزفوها إلى الجنة.

لكـن القدر التى كانت تحوى كنـوزه ظلت الأرض مطبقة عليها ساكنة خرساء لا يعلم مكانها إلا الله..

* * *

الأم الثانية

فــى صبيحة أيــام العيد تكــون القطارات الذاهبــة إلى المدينة والراجعــة منها مزدحمة بالناس أكثر مــن المألوف.. وفى القطار الداخــل إلى العاصمة فى صبيحة هذا اليوم ركاب وضجيج وملابس وبالونات وأمتعة أهمها «الأســبتة» تفوح منهــا رائحة الفانيليا أو الفواكــة أو رائحة الفطيــر والخضروات. وكل هــؤلاء القادمين من الريف إلى المدينة يحملون فرحة ذات ضجيج يعبرون عنها بنداء بعضهــم على بعــض أو بالضحكات وربما يحمــل أمتعتهم الثقيلة بأنفســهم.. كل واحد منهم فى طريقة إلى إنسان يحبه أو نزهة أو متعة ناسيا كل ما عدا ذلك..

وبقدر البســاطة تكون الفرحــة ولذلك فقد ضــج الممر الأرضى المؤدى إلى خارج المحطة بما يشبه الجلبة التى تحيط بالمراجيح – حيــن عبرته إلى الخارج قافلة من الريفيين.. بينهم فتاة شــابة صامته فى الخامسة والعشرين، ريفية تمشى مشية فتيات المدينة تتعثر شــيئا ما فى ملبســها الطويل الأذيال لكن تموج بدنها تحت الواســع يدل العين على أنها نالت قدرا من التمدين وربما لبســت الملابس الضيقة يوما ما. وعلى رأســها «ســلة» كبيرة وعلى شفتها ابتسامة صغيرة.

كانــت تعرف العنوان التى تريــد أن تذهب إليه ومن أجل ذلك لم تســأل أحد عنه. وأخذ الترام يشق بها شارع كلوت بك ببواكيه التاريخية ومحلاته التقليدية وعينها تتابع طريقها فى صمت حتى وصلت إلى المكان المطلوب.

فهــذه «دار الكتــب» المخططة بالأحمر والأبيــض تقع الآن على يسارها.. عليها إذن أن تنزل آه.. وهبت عليها من ميدان «باب الخلق» رائحة قديمة.. عرفتها. كان محل السردين مغلقا لكن رائحته نفذت منه وإلى جانبه تماما محل الحلوانى الذى يبيع الجوزية والمشــبك والبسبوسة وحوله عديد من الناس يأكلون أو يشترون.

خفق قلبها وهى تلقى بنظرة على ذلك الشــاب الذى يقف هناك فى مريلة بيضــاء ناصعة مثل مريلة الطبيب «كما كانت تقول» وقد انهمــك وراء الزجاج فى قطع الحلويات. لم يلحظها ولو أنها وقفت أمامه عدة ثوان فواصلت ســيرها حاملة الســلة لكنها بعد أن مشت بضع خطوات شعرت برغبة فى أن تعود لتسمع صوته. حتى مجرد كلمة بين بائع ومشتر.. «هات وخذ»..

خصوصا فى هذا الزحام. لكنها على الرغم من أى شىء ستنظر من جديد فى عينيه الكاذبتين. عيناه اللتان تزيفان المشاعر وخدعتاها زمنا غير طويل.

ونادت باســمه فلم يرفع رأســه. كأنما عــاد فتذكر هذا الصوت فنظر كأنه يستيقظ من حلم ويده مشغولة بالعمل. قهقه فجأة عندما

رآها وطالت قهقهته.. أحست كأنه يسخر منها ثم ما لبث كل شيء أن صار عاديا.. وأعطاها ما أرادت من الحلويات ونظر إليها كأنه يأسف على شيء.. ثم ما لبثت هذه الخطرة أن تولت كأنما بلعتها موجة..

واستأنفت سيرها تحمل الحلويات ممن كانت تحب آخذة طريقها إلى من تحب. على رأسها هدية من الريف وفى كفها هدية من المدينة ولم تدر لماذا سالت من عينيها دمعة وهى تصعد مرتفع شارع «غيط العدة» لتأخذ طريقها إلى البيت المقصود.

وعندما دخلت الحارة أخذت تنظر إلى الحوانيت وأصحابها الذين عرفتهم وفارقتهم منذ أكثر من سنة. ومن النظرة الأولى لم يعرفها أحد. فأحست بخجل.. فلم تطاوع نفسها أن تحيى أحدا منهم. لأن خمسة عشر شهرا لا يمكن أن تطمس الوجوه والذكريات هكذا. وحين شمت رائحة البخور المألوفة التى كانت تنبعث عادة من دكان اللبان عرفها أنها على مقربة من البيت فتذكرت أيام طفولتها فيه ليالى كانت تخاف من القطط السوداء والبيضاء التى تسرح فى ظلام الحوش.. ثم.. ذكرت أيام شبابها.. ليالى كانت تخاف من الملابس البيضاء أو السوداء التى كانت ترف أحيانا بجانبها وهى فى طريق عودتها من السوق.. ثم شغلها صعود السلم. كل شيء كما هو. وحتى الزجاج الذى يحلى شبابيك السلالم لم يكسر لم يمسح من عليه التراب. وكانت متوقعة أن ترى بين

الأطفال الذين سـلموا عليها وقبلوها ونادوها باسمها وهم يتواثبون على السلالم – كانت متوقعة أن ترى بينهم «نبيل» ذلك الطفل الذى أحبتـه والذى جاءت اليوم لتراه وحملت له على رأسـها هدية من الريف وفى كفها هدية من المدينة. لكن شـيئا من ذلك لم يحدث. حتى إذا وصلت إلىالدور العلوى رأت باب الشـقة مغلقا. والشـقة منفردة على سـطح العمـارة وأمامها الفضاء وشـمس أكتوبر تلون البـلاط المعصرانـى الحجرى الأبيض الذى فرض به السـطح بلون أقرب إلى أرض الملاحات أحست عنده بوحشة كأنها لم تره قط.

ولكن سـرعان ما وضعت «السبت» من فوق رأسها ودقت الجرس والتقطـت أذنها بعد عدة دقات صوت نبيل ابن الخمس السـنوات وأختـه الصغرى بنت الأربع السـنوات وهما يلهـوان فى الداخل ويضحكان فلم تلبث الوحشة أن فارقت قلبها – وعادت ريثما يفتح الباب – فألقت نظرة على بلاط السطح ثم تذكرت لعبهم فيه.

ولم تلبث أن سـمعت – بدل وقع الأقدام – صوت زمارة يقترب. يبـدو أنها مركبة على فوهـة بالون نفخه الطفل ثم سـار به نحو الباب ويرسل صوته تلقائيا وهو سائر ليقول مع زمر البالون بصوت شجاع حلو لا يخلو من لثغة محبوبه: من؟.. من؟.. من؟..

وعندما سـمعت صوته من وراء الباب مباشرة كان صوت البالون قـد انقطع وصوت لعب الأطفال على السـلم فى الأدوار السـفلى قد سكت كأنما لتهيئ لهما الظروف أن يسمع أحدهما الآخر.

وعاد نبيل يسأل وقد ألصق جبينه بالباب من الداخل ومن ورائه أخته فى يدها شخليلة ذات صلصلة حنون. وسأل نبيل.

– من على الباب؟

عندئذ عرفت الفتاة أنه لا أحد فى الداخل غير الطفلين وأنه منذ خروجها من هذا البيت وعودتها إلى الريف للزواج بعدما تبين لها أن حسن الحلوانى يريد أن يبعث بها – منذ ذلك التاريخ لم تدخل البيت غيرها ممن يقمن بالخدمة.

وتركت الصبى يسأل وسرح فكرها إلى طفل آخر اسمه نبيل.. هو ابنها هى.. ذلك الذى تركته مع أبيه فى القرية وجاءت لترى ربة هذا البيت فى يوم عيد.. تلك التى كفلتها ورعتها وزوجتها فظلت تحمل لأطفالها حتى الآن ذكريات حب غريبة. حتى أنها فى يوم من الأيام قالت بسذاجة لزوجها هناك وهى تحملق فى وليدها: «لو رأيت نبيل ابن الأستاذ سعد لرأيت ملامحه فى وجه نبيل ابنى..».

فحملق فيها زوجها وضحك.. فقطنت إلى سذاجها وقهقهت. وها هو ذا صوت الصبى يأتى من وراء الباب سائلا:

من؟ من؟!

– أنا دادا زينب يا بلبل.. أين ماما يا بلبل؟!

فعلا صياح وهياج. حركة غير مضبوطة من طفل لم يتحمل الفرحة فأخذ يهز الباب ويدقه بقدمه وأخذت أخته تضرب الخشب بالشخليلة وتقول كلاما غير مفهوم لكن فيه رائحة الفرحة.

أمــا الصبى فإنــه هدأ قليلا بعدما فطنت الفتــاة إلى أنها أثارت عواطفــه وحاولت تهدئته بالخديعة قائلة له: «انتظر يا بلبل.. أنا سأفتح الباب بالمفتاح الذى معى.. انتظر.. اهدأ انت حتى أستطيع فتح الباب».

وأخرجت من جيبها قرشــا.. قطعــة معدنية.. وأخذت تحكها فــى ثقب المفتاح لتحدث صوتا يشــبه محاولة فتح الباب وفى هذه الأثناء، كان صوت الطفل يأتى إليها وقد غلف بشخللة اللعبة التى فى يد أخته قائلا لها:

«دادا زينب.. وحســتينى (وحشتينى) ماما فى السغل (الشغل) وبابا فى السغل (الشغل) وبكره العيد يا دادا زينب.. افتحى الباب علشان أبوسك».

كانت فى هذه اللحظات تحك قفل الباب بالقطعة المعدنية التى أخرجتها من جيبها لتوهم الصبى أنها تعالج فتح الباب. والســبت إلــى جوارها علــى الأرض يحوم حولــه قط كبيــر.. مخطط الجلد كأنه نمر. عرفته من قديم فطالما طاردته عبر الشــقة معتديا وعبر الســطوح معتديا كذلك.. وذكرها لون عينيــه بلون عينى زوجها.. وبالتالــى تذكرت ابنها الــذى أقفلت عليه باب الــدار وحده وهو طفــل فى اللفائف بعد أن ملأت له بطنه باللبــن.. لم يكن أبوه إلى جواره أيضا.. كان يشتغل فى إنشاءات السكة الحديد على بعد ستة كليومتــرات مــن القرية وهى تذهب بعد طلوع الشــمس إلى حقول

القطن.. تهز الندى عن الشـجر فتذكر تقاطر اللبن فى فم وليدها.. وكثيرا ما هاجمها وسواس أن ابنها قد تعرض لخطر..

وأخذت تحك القفل بالقرش وريقها جاف:

– افتحى يا دادا..

– حاضر...

– ماله مفتاحك؟! أنا سـامع صوت القط الكبير.. اضربيه أحسن يعضنى..

وأرادت أن تفتح له باب الاستطراد فى الحديث:

– أنـه لا يعض إلا القطط. لا يعـض الأولاد أبدا. هل تعلم أننى خلفت ولدا اسمه نبيل..

وبفرح شـديد ودقات على الباب تشبه دقات طبلة غير مضبوطة وصوت شخليلة كوثر جاءت ضحكات الصبى وأسئلته:

– فى المدرسة النهاردة يا دادا؟

– لا.

– ايه؟ علشان بكره العيد؟

– نعم. هو ولد شجاع لا يخاف من شىء. تركته وحده فى البيت وذهبت إلى الشغل أنا ووالده فظل يلعب ويغنى حتى رجعنا إليه..

– ورجعتم والعيد معكم؟

– ورجعنا والعيد معنا.

– أختى كوثر تحب البون بون يا دادا.. و..

وتركته يحكى ذكريات وخيالات وحقائق وعادت هى بذاكرتها إلــى آخر ليلة ودعــت فيها هذا البيت عائدة إلــى الريف لتتزوج. ليلة قالت لها ربة البيت كلمة لا تزال تذكرها: «أنا لســت خائفة من فراقــك لأننى أعرف أنك هناك ستعيشــين نفس الحياة. فأنت وزوجك لابد لكما أن تشتغلا مثل حالى أنا وزوجى تماما».

ثم اســتطردت فى ابتســامة راضية: «ربما كنتما ذات يوم أحسن حالا.. لأن طبيعة العمل فى الحقول لن تســتدعى الشــغل يوم العيد. لكن زوجى الموظف فى السكة الحديد وأنا المشرفة على دار الكفيفات قد يحدث أن نغيب معا عن بيتنا فى يوم عيد. كل الذى يؤلمنى أن الآم الثانية لنبيل ستبعد عنه.. هذا كلام جميل.. ولكن افرضى أنك سميت ابنك «نبيل» كما تحبين فهل معنى ذلك أن ابنى سيسلو عنك؟».

ومن خلال ضحكتها الواهنة اســتطردت: «هل تشعرين أنه لن يكــون هناك فرق بين ظروفى وظروفك.. أم نبيل فى المدينة مثل أم نبيل فى القرية.. ستشــتغلين بيديــك وقلبك ملىء بالحب وصدرك ملىء باللبن.. مثل تماما ليس هناك فرق». وقبلتها وهى تقدم إليها الهديــة الأخيرة. حليــة وملابس من الحريــر والقطن.. وزجاجة عطــر.. لا تزال تحتفظ بها.. لا تتعطر منها إلا مرتين فى الســنة. كل مرة يوم عيد.

وهــا هى ذى رائحتها تفوح من ثوبها الآن وهى تعاود حك قفل البــاب بقطعة من النقــود ونبيل فى الداخل يثرثــر بحكايات عنه

وعن كوثر ويشـتم القط كلما سمع مواءه ويتحدث عن يوم ذهابه إلى المدرسـة ويسأل عما إذا كان ابنها قد نجح مثل ابن جيرانهم الذى سقاه الشربات.

وفجأة ساد صمت وجلست «دادا» على الأرض منهكة القوى فقد مضى عليها فى وقفتها نحو ساعة.

وبكى الصبى فى الداخل: «أنت بتضحكى عليا يا...».

ثم ارتفع صوت وأحست فيه الفتاة رنة غريبة وجديدة!

«لا.. أنت مش دادا زينب أنت حرامية».

وارتفع صراخـة.. وكانت أخته تشـخلل.. تركته وحده يبكى وفجأة شاركته فى البكاء..

نظـرت زينب إلى ما حملتـه فى يدها مـن دكان الحلوانى من أجلهم وما حملته على رأسـها أيضا. وخيل إليها أنها تسمع صوتا ثالثا فى الداخل يشاركهم البكاء.. وأقعى القط وأخذ يموء فى حزن لأنـه يتطلـع إلى طعام لم ينـل منه إلا رائحته وأحسـت الفتاة أن صدرهـا ملىء باللبن.. وكانت على عـزم أن تعود آخر النهار لكى تبيـت فى دارها.. وها هو ذا الباب يحـول بينها وبين من حملت الهدايا إليهم وصوت بكائهم يأتى إليها متقطعا.. ثم ابتعد..

وفجأة وجدت نفسها تشـمر أذيالها ثم تقف إلى الباب وكتفها إليه ثم تدفعه بقوة فلاحة.. فانفتح..

ودخلت فاحتوت الطفل بيــن ذراعيها.. وردت الباب.. وعادت الذكريات القديمة وارتفعت ضحكات الطفلين فى المسكن.

* * *

وعندما عادت ربة البيت أدهشــها أن ترى الباب مفتوحا. لكن زينب قالت لها وهى تبكى وتضحك. إنها لم تســتطيع إلا أن تكسر الباب فذلك أسهل مما تحملت.

«إننى راجعة إلى بلدى يا سيدتى بعد ساعة لأن زوجى لم يسمح بغير ذلك.. وصدرى ملىء باللبن ونبيل وينتظر أن أرجع إليه هناك والعيد معى.. كما قلت أنت لنبيل هنا».

ولم تلبث قبلة وداع أن سمعت بين الاثنتين.

* * *

الدرس

شعر بنوع من الراحة لم يكن رآه من قبل عندما فتح له هذا الرجل المسن البدين باب آخر حجرة على يمينه فى الممر الطويل الذى غطته عتمة الليل ولم تبدد ظلماته المصابيح المتباعدة.. انحنى الرجل وهو يفتح له الباب ويتراجع ليفسح له طريق الدخول وهو يقول:

– تفضل يا سيدى.. تفضل.

عندئذ شعر بنوع من الراحة لم يكن رآه من قبل، لقد أتعبه البحث فى المدينة عن حجرة فى فندق ينام فيه ناسيا أننا فى شهر يوليه وليس فى الإسكندرية مكان لنزيل لا تخدمه الظروف لذلك فإنه لم يستطع من فوره أن يلحظ مدى مساحة الحجرة أو نوع ما فيها من أثاث فكل ما كان يرجوه هو أن يضع جنبه على شىء ثابت.. سرير.. أو حشية.. أو أرض عارية وعندئذ سيستشعر لذة نادرة ربما توصف بعد أن تذاق.

وأقفل وراءه باب الحجرة واستلقى بملابسه كلها على السرير. ولم يكن يدرى بالضبط أين يضع حقيبة سفره. لكن هدوء الحجرة وما منحته من راحة ذكره بأيام الطفولة.. بما كان يلقاه فى أحضان أربع أمهات تتلقاه على التوالى وربما تنازعته فى حنان لا يوصف.

أيــام كان صبيــا يلعب ثم يدخــل متعبا إلى بيتهــم الريفى الكبير فتحضنــه فى حدب على التوالى خادمة مســنة وخادمة شــابة وأم مسنة هى جدته لأبيه ثم أم شابة لم ترزق بولد سواه.

ولأول وهلة بعد ســقوطه على الفراش فى هذا الفندق المتواضع أخذته ســنة من النوم لذتها لا توصف. خيل إليه أنه لم يذق مثلها قط لا فى الســرير النحاسى الضخم التائه فى الحجرة الواسعة فى البيت الريفى قديما ولا الســرير الخشــبى الحديث الذى تنام فيه زوجته الآن فى القاهرة.

وعلى صوت نشيش الماء الآتى من الحمام الملاصق لحجرة نومه فى الفندق استيقظ بعد ربع ساعة.. عندئذ جلس فى الفراش. ونظر فى ساعة معصمه فإذا بها تشير نحو الحادية عشرة مساء. ثم ألقى نظرة على نفســه «من الخارج». ولم يكن يدرى لماذا قد استحال فى هذه الآونه إلى شخص «مكرر» كمن يرى خيال نفسه فى عدة مرايا ولذلك فإنه عندما ألقى نظرة علىنفســه رأى قميصه المبلل بالعرق وشــم رائحة قدميه العاريتيــن من الجورب وكانتا على الحشــية الخفيفــة أضخم حجمــا فى نظره عن المألوف لكثرة ما مشــى هذه الليلة.

شــعر أنه ليس فى أناقته القديمة فهل كان يســمح لنفسه مثلا أن يجلــس متربعا بالبنطلون؟ أو أن يســير حتى ينقطع جوربه من الخلف؟!

على أنه عندما مدد ساقيه على الفراش وطقطقت مفاصله أحس بلذة جديدة فعاد فرقد كما كان وأخذ يتأمل هذه الحجرة التى عثر عليها بعد جهد. فى هذه اللحظات فقط بعد أن زالت حدة التعب والحاجة استطاع أن يقيس مساحتها «متران ونصف فى مترين ونصف». فيها هذا السرير السفرى وقطعة صغيرة من الأثاث هى صوان للملابس وفى الحائط المقابل للباب نافذة صغيرة مقفلة حتى الآن لم ير ما وراءها والسقف منخفض جدا. فيه مصباح عار غير ساطع النور وليس فى المكان أى صوت سوى ما يأتى بين حين وآخر من خرير الماء فى الحمام القريب وعلى الحائط فوق زر النور صورة لراقصة «بالية» من مجموعة نسائية يبدو ببساطة أنها فصلت من إحدى المجلات وعلقت فى ذلك الإطار الزجاجى الرخيص التكاليف.

وفجأة وجد نفسه يوازن بين هذه الحجرة وبين تلك التى تربى فيها.. كم تمنى لو كانت ضيقة عليه أيام صباه؟! كان الجزء الواسع المفروش بالحصير المنقوش والبساط الأخضر يبدو فى الليل مليئا بالأشباح وصور العرائس الحاملات المزاهر لم يكن يراها فى النهار هناك ولم يكن يرى فيها جمالا ولا قبحا.. فلا يكاد يحس بأن على الحائط نقوشا وزينة. أما فى الليل فهى تبدو قافلة من الجنيات. وكم تمنى أن ينام فى حجرة ضيقة أو ينام معه فى هذا الاتساع ناس كثيرون.

وهو الآن فى حجرة طولها متران ونصف وعرضها كذلك. عثر عليها بعد جهد. ليس فيها بساط ولا سجادة لكن فيها غفوة لذيذة.. واسترخاء لا يوصف. لجأ إليها من مشـاكل تركها مؤقتا.. طفت فجأة على صفحة حياته كما تطفو الجثة على صفحة النهر.. ولم يطق أن يتحملها ببساطة فلمـا رأى الخلاف قد بـدأ يتوطد بينه وبين زوجته آثر أن يترك موطن الخلاف فركب إلى الإسـكندرية هكذا كما اتفـق ووصل هكذا كما اتفق وأعياه البحث عن حجرة فى فندق حتى استقر فى هذه الحجرة.

* * *

مـد يده فأطفـأ النور ثم قام إلى النافـذة ووقف فيها ومن خلال الظلام النسـبى فاحت من الحارة الخلفيـة الواقعة عليها الحجرة روائح غامضة خليط من الفواكه والسـردين وجو الرطوبة. ولم يدر لماذا أحس بحاجة إلى استنشـاق الهـواء كأنما هو فى جو غريب يريد أن يتعرفه فملأ صدره منه. ثم أطل على الحارة.

كانـت ضيقة هادئـة تملأ ناحيتها المقابلة مدرسـة مكونة من طبقتين مقفلة طوال الصيف وعند ناصية المدرسة عدة دكاكين رأى منهـا على مقربة منه – لأنه فى الـدول الأول – دكان رفاء ودكان ساعاتى. جلس صاحباهما متقاربين كل على باب دكانه يزاول عمله تحت مصباح قريب من وجهه تدلى من سلك.. كل منهما يعمل فى صمت والمكان صامت فخيل إليه أنهما أعديا المكان بالسـكون على أن جناح السكينة كان يرفرف على الحارة.

ولولا الروائح الفضولية لكاد يتصور أنه يطل على معبد.

وكان كلا الرجليــن يســتعين علــى عمله بكل ما فــى نظره من قوة. غير أن الرفاء اســتحوذ على مشــاعره كلها فقد كان أصلع يقع جــزء من النور على رأســه فيبرق وأمامه قدح مــن القهوة وفى يده جورب لســيدة يرفو فيه قطعا كبيرا وبين آونة وأخرى يدق جرس مكتــوم يأتى صوته من «الفاترينة» الزجاجية الصغيرة التى وضعها الســاعاتى أمامه. وهذا الجرس من «منبــه» تحت الإصلاح. وكأنما كانت دقاته تنبه الرفاء من شبه نعاس أو استغراق ذى أعماق يتألم عندما يسحب منه فيلقى بنظرة عابرة قصيرة إلى الناحية التى فيها جاره ويعود إلى ما كان فيه.

قال فى نفسه وهو ينظر إلى العمل الصامت الذى لا تقطعه نأمة ولا حركة: «إنه يعيد نســج الجورب.. يا الله.. إن كل إعادة عملية لا تخلو من مشــقة حتــى صواب الخطأ الذى كنــا نكلف به ونحن تلاميذ.. آه «وتنهد» أما هذا الرجل...».

وعندئذ رن جرس المنبه فى يد الســاعاتى رنة قصيرة تدل على أن «العدة» لم تصلح بعد لكن الرجل عاد فســأل نفسه: «كم أريد أن أعرف طريقة ســلوك هــذا الرجل مع زوجته فــى البيت؟! هل يا ترى يأخذ أموره كلها بهــذه الطريقة الصابرة التى تبنى من العدم وترمم من الخراب.. لا يغضب.. ولا ييأس ولا يرى فى الدنيا طريقا مسدودا؟!.. آه لعله كذلك».

وعادت إليه ذكرى مشكلته تلك التى لا يكاد يعثر لها على حل. فهو وزوجته يشغلان وظيفتين فى وزارة الصحة وعندما تعرف كل منهما على صاحبه كانا فى مدينة أسيوط.. دب بينهما الحب.. فى مستشفاها المركزى. فتزوجا.

حسن.. لكن بمرور الزمن كان لابد من تعدد أفراد الأسرة وراود الزوجة شـيطان جميل.. هو العودة إلى القاهرة حيث مسقط رأسها والذكريات والأسـرة والأم الحنون التى تترك عندها الأطفال ريثما تعود من المستشفى.. حكيمة.

ودق جرس المنبه فى يد السـاعاتى فجر أفـكاره إلى الحارة.. نظر إليـه ثم إلى الرفاء كان فى هذه اللحظة يجادل سـيدة بصوت خافت ثم ارتفع الصوت حتى سمع الحوار:

– لكن ما تطلبه من أجرة يمكن أن أشترى به جوربا جديدا.

ظل كما هو.. الإبرة تنسج والصوت خافت يسمع بالكاد.

– ولماذا جئت به يا سيدتى؟

ضحكت السيدة فى دلال.. وبعد صمت قصير جاء ردها:

– لأن لهذا الجورب ذكريات..

– احتفظى به مقطوعا.

– وهل يحتفظ أحد بحبيبه ميتا على سبيل الذكرى.. إننى أريد أن أحييه.

– أنت تريدين الشيئين معا. من أجل هذا ستتعبين.

قال فى نفسه وهو فىالنافذة: إن زوجتى تريد الشيئين معا. وهناك شيئان لا يجتمعان. بادلت زميلة لها فرحلت هى إلى القاهرة.. على أساس أن ينقل زوجها إليها لكن.. تبين لها أن مطلبها غير قانونى.. فقد كانت مع زوجها من قبل. وبذلك خسر الزوج مسعاه عاما بعد عام حتى أصبح يشعر بالوحدة والخسارة والفراغ. ولم يكن قادرا على أن يدفع إيجار شقتين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ثم كان عليه لكى يرى أولاده أن يسافر إلى العاصمة فرأى زوجته فى هذه المرة وهى تعانى آلام المخاض. وكان لابد أن ينتظر حتى تلد ثم دب بينهما الخلاف حين قال كلاما معقولا: ما دام أنه من المحال أن أنتقل أنا إليك فعلينا أن نسعى لتعودى حيث أنا.

– وهل هذا معقول؟! إن رعاية أطفالى فى غيبتى موكلة إلى أمى.. آ..

وأجهشت بالبكاء وهى ترضع الطفل فشعر ساعتئذ بضيق لا يقاوم فأخذ يصيح ويصرخ معبرا عن آلامه ومتاعبه واحتياجاته. أما هى فقد عملت ماتعمله أضعف امرأة.. شرعت السلاح السلبى المهلك.. تركت دموعها تجرى من عينها إلى خدها إلى عنقها حتى كادت تصل إلى فم الرضيع.

فلما رأى هو ذلك خرج غضبان مسافرا إلى مكان لا تعرفه.. إلى حيث هو الآن.. يطل على الحارة الهادئة التى أفعمت أنفاسها بتلك

الروائح الغامضة واسكرتها هدأ الليل.. ولولا هذان الرجلان اللذان يعملان ما بدا فيها إلا النوافذ المقفلة للمدرسة المواجهة.

لكن جرس المنبه رن رنة واحدة فى يد الساعاتى فجره إلى تحت إلى حيث الرفاء يعيد نسيج الجورب الذى مزقته الحركة وكانت السيدة قد جلست على كرسى جواره.. بلا مسند وكانت تقول:

– لكن أنا مصممة على أن أنال الشيئين معا.. سأرفى الجورب وأدفع ما أريده..

– ممكن أن ترفيه ولا تدفعى شيئا..

وتهللت المرأة لهذا الحديث وقرقرت ضاحكة:

– ياه.. أشكر لك ذوقك..

رد بإهمال الآلة:

– ليس هذا قصدى.. قصدى أن تتعلمى كيف ترفين جواربك بنفسك وعندئذ لا تدفعين شيئا.

– ظننتك تجاملنى..

– المجاملات لا تحل المشكلات..

– لكن آه.. إنها صنعة مملة..

– بتاتا.. لو كان فيها ملل لضاق صدرى من مساوماتك..

– ذلك طبيعى.

– لكن تذكرى أنك تساومينى على نورالعين..

– هل غضبت؟

– بتاتـا؟!.. مـا على فى مثل هذه الحـالات إلا أن أتصور أننى «أرفى» كلام الزبائن بدلا من أن أرفى جواربهم..

وعندئـذ جلجل ضحك المرأة وضحك السـاعاتى وجرس المنبه فى لحظات متتالية فابتسم الرجل الواقف فى النافذة وحملق طويلا فإذا بالمرأة تلقى إليه بجوربها وإرادتها معا.. مسلمة بكل ما طلب من أجر.

ثم استدارت منصرفة. وظل هو فى مكانه.. وضع جوربها أمامه واستمر يعمل بالإبرة ولا شىء يتحرك فيه إلا الأنامل..

* * *

دخل الرجل من النافذة واسـتلقى فى الفراش. نظر إلى مساحة الحجـرة فألفاها واسـعة مريحة كأنها فى سـعة حجرته القديمة المفروشة بالحصير والبساط فى الريف.. عليه إذن أن يعالج مشاكله بنفس الطريقة التى عالج بها الرفاء موقفه.. وسـأل نفسه بإلحاح: «لكـن.. كيف يتصرف هذا الرجل مع زوجته»؟! وجاءه جواب «إن كان باب النجار مكسورا.. فهذا لا يهم الزباين فى شىء».

واسـتغرق فى نوم عميق ثم قام وقت الصباح فأخذ حماما باردا.. ثم.. اسـتقل القطار إلى القاهرة.. وهناك ودع أسرته فى صمت دعا زوجته إلى التفكير الطويل.

* * *

مضى شـــهر ولم تتلق منه رسائل. وكلمته فى التليفون فاعتذروا بأنه بعيد فى أحد أطراف المستشـــفى. مر نصف شهر.. ثم جاءتها منه رسالة تقول:

«إذا كنـــت ترغبين فـــى اجتماعنا مرة أخرى فقـــد دبرت الأمر لزوجين فى مستشـــفى واحد. وهناك فى أســـوان حصلت على مكان لى ولك مكان شـــاغر بانتظارك.. فإن شـــرفت فأهلا.. وإلا شـــغلت المـــكان امرأة أخرى.. يا حبيبتى.. أرجو.. أن تفهمى قصدى تماما ولا تجزعـــى فإن المكان الذى أقصد أن تشـــغله امرأة أخرى هو فى المستشفى لا فى البيت ولا القلب».

* * *

مملكة التراب

جــو الليلة ليس مطيرا. وإن كان فى الســماء ســحاب منخفض يجرى فــى اتجاه الجنوب. ومن الحقول تفــوح رائحة نوار الفول ورائحة آجر محروق حديثا فى قمينة خمدت تحتها النار..

وحول الخيام المفروشــة بالقش انعقدت غــلالات متذبذبة من الدخان الصاعد من الكوانين. وليس من الدخان روائح شــهية. ليس معــه إلا أغــان متهافتة تدل علــى الانتظار.. مع صــوت الجنادب المدفونة فى الطين أو اللابدة فى الحقول. وســعال متفرقة وقهقهة مجهودة ليست فى الحقيقة ضحكة بلغت ذروتها إنما هى استثارة للضحك أكثر من أى شىء.

وعاد بعــض الرجال بقوالب مــن الآجر من القمينــة ونصبوها كوانيــن وبعضهم عمل منها إطارا حول الخيمة من الخارج حتى لا يعبث الهواء بقماشها ويتسرب البرد.

وفــى إحدى الخيــام رجل يغنى. رائق الصوت ضعيف الجســم واســع الفم كبير الضحكة. ســعيد من يأكل معه فهو يجعل النكت أداما للخبز.. أحلام اليقظة عنده تجرى على هيئة سيال لا ينقطع.. فى النهار أو فى الليــل وهم يطهرون المصارف أو يتناولون الطعام أو يشــربون الشاى. اسمه إبراهيم الرقاص وقد لحقه هذا اللقب من

جــراء مهنة فرعية له. فهو يشــتغل بتبييــض النحاس فى بعض المواســم وعندمــا ينضب الرزق فــى هذا المجال يســافر مع عمال التراحيــل.. حرفته علمتــه الرقص ولذلك فهــم يجبرونه على أن يرقص إذا ما طاب لهم أن يروا أردفا تتحرك.

صوته الليلة حزين.. ينبعث من خيمة فى الوســط فيها عشرون رجــلا يغنى لهم فى انتظــار الطعام. وقدر كبيرة علــى النار فيها عدس لا يريد أن ينضج.. لا تســتجيب للنداء كأنها إله وثنى قاس أصم عن النشــيد أعمى عــن البخور. وفجأة كف عــن الغناء وكأنه تذكر شيئا. وبدت على ملامحه جدية طارئة حتى حملق فيه أقرب الجالسين إليه وســأله عما أصابه وعلل رجل سبب سهومه الطارئ بأنــه ربما تذكر زوجتــه الراقدة الآن تحت الســقف وثديها الذى نسيته خارج الجلباب ونامت قبل أن ينام ابنها «خليل» الرضيع.

لكــن الرجل لم يــرد. فانفتحت أفواه الرجــال وكل يرمى عليه همومــه. أو يثيره ليتكلم أو يحكــى أو يغنى. لكن صمته طال حتى قذفه أحدهم بحفنة من قشور الفول فقال إبراهيم بعدها وكأنه يلقى اتهاما:

– أنتم لا تعرفون لماذا سكت.. لأنى حزين.

وعلى الرغم من ارتفاع ضحكات لا تقدر العواطف استطرد:

– إنكم لا تتقدمون. إنهم فى بلاد بره لا يفعلون هكذا.

وارتفــع ضحكهم حتــى صار ضجيجا فاضطــر إبراهيم إلى رفع

صوته وكأنه يخطب وقام واقفا واتكأ على العمود الأوسط فى الخيمة واستطرد:

– ابن أم رقاقة هذا يسأل عما أقصده ببلاد بره لأنه لم يرها.. آه.. نعم أما أنا فقد رأيتها. إنهم فى بلاد بره لا يطبخون العدس بهذه الطريقة التى يطبخه بها هذا (العشماوى) بالسوس.. هناك يضعون عليه الكمون ويغرفونه فى الأطباق ويسلقون معه اللحم.. وربما دمسوه وصبوا عليه سمنا مقدوحا. هل عرفتم الآن أين بلاد بره؟

رد موج من الأصوات يصخب سائلا:

– لا يا بو خليل..

فضحك وهو يجلس جنب العمود وكأنه فرح بأن خدعهم.. ورد بصوت لين خفيض نصف مؤنث يثير كوامن النفوس المغتربة:

– بلاد بره هى التى تنام فيها زوجاتنا الآن مع دفء الأفران والماء الساخن وصابون فيه رائحة العرايس.. بلاد بره هى التى فيها الفراش والسقف يا أغبياء.

* * *

وعم صمت بعد أن جلس. لم يعد يغنى ولا يرقص. أطرق حتى استقر ذقنه على صدره. وصمت الرجال مشاركين والقدر تبعث ببخار أمسى فى أعينهم قليل الأهمية. وزحف على المكان صمت

الحقول وافدا من الخارج لأن معظم من فى الخيام الأخرى قد ناموا. لكن صوت محرك سيارة بدأ يقترب فأقلق السكون.. «هذا معقول» ونظر بعضهم إلى بعض. إنها ولا شك إحدى سيارات «جب» فليس من الممكن أن تمر سيارة أنيقة فى مثل هذه الأماكن. وخرجوا يحملقون فإذا نور كشافات على الطريق الرئيسى منح من الأنس قدر ما منح من الدهشة. استيقظ من فى الخيام كلهم حتى أيقنوا أن القادم فى الطريق إنما يقصدهم.

وكانت السيارة تتوقف بين حين وحين مما يدل على أن من فيها يقفون قليلا عند كل مجموعة من الخيام التى ينام فيها عمال آخرون. ثم بدأت السيارة تستأنف سيرها يسبقها خطان من النور يفرشان الطريق الوعر. حتى وصلت إليهم فكان إبراهيم أول من جرى ليستقبلها:

– ماذا جرى لكم؟ هل قامت الحرب الثالثة؟

ورد عليه صوت مألوف فيه خشونة الصنفرة:

– اسكت يا رقاص.. سحبوك من لسانك دون عباد الله.. أكلك وابور..

ضحك بإهمال ومسح عينيه بكم جلبابه واستطرد:

– إذن لماذا جئتم؟ لعل العمدة خلف ولدا يرث العرش من بعده فحملتم لنا البشرى. هل نزغرد؟!

ونزل صاحب الصوت الخشن وهو الموكل بكل الأنفار من قبل

المقـاول نائبا عنه وكان معه رجلان غريبـان لم يعرفهما أحد مما جعـل الصمت أكثر حذرا وأكثر طولا. ووقف الرجال الثلاثة يلقون نظـرة كأنها جديدة على الخيام التى غبرهـا الدخان وتخرقت فى بعـض أماكن وعلى تـلال الطيب والتراب علـى المصارف ثم دلفوا إلى إحـدى الخيام وتبعهم العمال. حيث جلسـوا قليلا. وقام أحد المتحمسـين يصنع إبريقا من الشـاى رفضه أبو عـزوز ذو الصوت الخشن بإشارة قلقة ثم قال لهم:

– اسمعوا إن المقاول.. آه.. انتقل..

قاطعه إبراهيم الرقاص فى شجاعة مترددة:

– فلينتقـل إلـى أى مكان يعجبـه.. والله لن ننتقـل من هنا إلا بإرادتنا نحن.. كفاية..

– يا مغفل.. اصبر.. «ثم تكلف الحزن» لقد انتقل إلى رحمة الله وهو يصلى المغرب وأصبحنا جميعا مثل أولاد بلا والد.. و..

وحشرج صوته من البكاء المحبوس.. ونظر الرجال بعضهم إلى بعـض يريدون أن يروا الفارق الدقيق بين الحزن ودمعة الفرح حين ترتدى السواد. لكنهم أحسوا – ولابد أن من فى الخيام الأخرى قد أحسوا – بأن فرصة مجهولة ترفرف على هذه الخيام.

لكـن أبو عزوز سـيملك فرصـة حقيقية. فهو الرجـل الوحيد الـذى يمكن أن يتقدم للمقاول الإغريقى لضمـان ماله. وعندما يعلم هذا المقاول بوفاة رجله الأول فلا شـك أنه سـينهار فإن ألوفا من

الجنيهات التى نثرت على هذه الترع ربما تضيع وعدد من الرجال سيسعى منذ الصباح التالى إلى الخواجة «بترو» فى الإسكندرية يعرضون عليه السير بالعمل إلى بر السلامة بعد أن مات المقاول حتى لا تضيع الأموال التى نثرت على الترعة.

وبدأ العمل فى اليوم التالى مترنحا قلقا وهرب كثير من الأنفار إلى قراهم خصوصا بعدما بدأت أحوال الجو تسوء. وكان الخواجة «بترو» ينام كل ليلة مكتئبا بعدما يستمع إلى آخر نشرة جوية من الراديو مثل صياد ربط قاربه على الشاطئ. لكنه فى اليوم الثالث جاء إليه رجل مهيب. كان الخواجة بترو يعرف اسمه ولا يعرف شخصه. وجلس يتحدث معه فى شئون العمل وذكره بماضيه.. بماضى الخواجة بترو نفسه. أيام كان يعمل مساعدا لناظر زراعة فى إحدى العزب. وكان أيامها وهو شاب مولعا بأكل الأوز مما جعل نساء الفلاحين هناك يتبارين فى إهدائه إليه. وضحك بترو بوجهه الدموى. لكنه أحسن أن محدثه مفتقر إلى اللباقة. فإن أهل العز قد يجرحهم أن تذكرهم بماضيهم. ثم انتقل الضيف إلى الحديث عن العمال. هؤلاء الآلاف المنتشرون على المصارف والترع.. لو رأيتهم من طيارة قريبة من الأرض وهو يتسربون فى التراب لأيقنت أنك فى قرية النمل. وحدثه عن طباعه.. إن الخواجة بترو يعرفها ولكنه اليوم يود أن يعرفها ويحب ألا يسمع عنهم شيئا فى وقت واحد. وأخذ الضيف يؤكد له أنه من الخير أن

يكل أعماله بعد المرحوم إلى مثله هو لأنه من أبناء المهنة. ولأنه خبير بأسرار هذه النفوس التى إذا أطعمتها طمعت وإذا أطمعتها طمعت. وخير ضمان لك أن تكون دائما موضع رجائهم على بعد. ينظرون إليهم مثل السحاب. وباسمك يتصرف رجل منهم خصوصا فى هذه الفترة التى اضطرب فيها العمل بعد موت المقاول. وإنهم حين يا خواجة (بترو) سيتذكرون أشياء مثيرة. بعضها يضايقهم وبعضا يغريهم لكن عصا الخيزران فى يد رجل مثلى تخيف الفأس فى يد رجال من أمثالهم. وربما كان المسدس فى يدك لا يخيف أكفهم الفارغة.. واعترى الخواجة (بترو) بعد سماع هذا غم شديد. وجعل يفكر. إن الذين دخلوا عليه من قبل لم يقولوا شيئا مثل هذا. لم يثيروا فيه الخوف. ظهروا على هيئة من يعرضون التبعية: «نحن فى خدمتك» «سنكون مثل هذا الخاتم فى إصبعك».. «أأمر».. ولا شىء بعد هذا. فلم يحس صاحب الأموال أنه أمام شخصيات ممكن أن يعرف فيها مكان الخير ومكان الشر. أما هذا الذى أطنب معه فى الحديث فقد أخافه حقا. لكنه مع ذلك كاد يشعر بأن له شخصية مميزة. شخصية اللص الحاذق. أو شخصية الناصح الذى يقدم النصيحة بكل ما تحمل من مرارة. فكاد يميل إليه. لكنه رغب فى أن يمنح نفسه فرصة فقال له: إنى أرغب فى أن أراك مرة أخرى بعد يومين لا أكثر. ثم رقد الخواجة بترو يحلم بالمصاعب فمن ذا الذى يضمن له بضعة ألوف من الجنيهات. غير المستقبل ولم يكن

قد اتخذ قرارا ما.

وفى صبيحة اليوم التالى قدم إليه أبو عزوز. دخل عليه متواضعا طيبا. ولم يكن فى حاجة إلى أن يعرفه بنفسه فلقد رآه مع المرحوم عدة مرات لكنه لم يكلمه. كان يراه ماشيا مع المرحوم كظله وقت الظهيرة. تحت قدميه باستمرار. يأمره فيطيع وينهاه فينتهى وأخذ يرحب به. قدم إليه القهوة فادعى أنه لا يشربها. وقدم إليه سيجارة فادعى أنه لا يدخن ثم أخذ يحدثه فى الموضوع:

– يجب أن ترى عملك بنفسك يا خواجه بترو. لا تفكر الآن فيمن سيحل محل المرحوم ولا فى النقود التى ضاعت ولا فيما سيحدث. لا شىء أعظم من أن ترى عملك بنفسك وسأكون بجوارك. إن هؤلاء الذين يمسكون الفئوس لا يخيفون أحدا. إن الصوت العالى يجعلهم ينكمشون فحاول أن تكون مرتفع الصوت وبعد ذلك فدع الأمر لى.

– لكن يا أبو عزوز.. إن معهم فئوسا.. فضحك الرجل فى هدوء وبدت على وجهه شفقة الريفى حين تنطق فتوحى بالحنان فاطمأن بترو إلى سماعه:

– سيرفعونها لتحيتك فلا تخف. سأكون معك. وإذا فكرت فى التأخر عن المرور فالله يعلم مصير ما يحدث. سيهربون مائة بعد مائة.. ويضيع مالك وتدفع غرامة للحكومة.

هز الخواجة رأسه مقتنعا: إنه ليس غريبا عن الفلاحين. إنه

يعــرف طباعهــم ولذلك فقد صمــم على أن يمر وأن يخالف ما أشــار بــه أبو عزوز فلن يصرخ فــى وجوههم كما قال ناصحه بل سيســلك سبيلا أخرى سيحاول أن يعدهم وأن يغدق عليهم يوم مروره وسيكون لقدومــه دائما تذكار طيب حتى إذا رأوه رفعوا الفئوس تحية لمقدمه وحبا فيه..

وفــى ضحا اليوم الثالــث كان الاثنان يمران بيــن الأنفار لتفقد العمل وعندما أهل الخواجة بترو على أول مجموعة وكان فيها نحو ثلثمائة رجل هللوا لمقدمه.

– هيه.. الخواجة بترو.. هيـ يــيه..

ورأى الخواجة الفئوس ترفع فى الهواء وكذلك الكريكات. وترك الرجال عملهم وأسرعوا إليه . أسلحتهم فى أيديهم كأنهم يسارعون إلى معركة وشــيئا فشــيئا بدأ الخواجة يتبين موقفه. فلم يكن على الوجوه المكدودة علامــات ترحيب بل كانت علامات غامضة. أراد أن يتكلم فلم يستطع. غابت عنه كل أنواع الكلمات. إلا كلمة وحداة هى: «أبــو عزوز» كان يهتف بها ويكررها كابتهال دامع. ولمعت فى الشمس الفئوس والوجوه والعرق فشعر الرجل أن ما أخذه منهم «بالتقســيط» ســيدفعه فورا.. والدفع فورا شىء مخيف خصوصا إذا كان «عمرا».

وارتفعــت فى الفضــاء فجأة عصا من الخيــزران كانت ذات قوة كعصا موسى.

لمعت تحت الشمس كما لمع العرق والحديد. وجعل أبو عزوز يهوى بها على رءوس المتجمعين وأجسامهم بلا تمييز تقع كما تقع والجمع ينحسر أمامها مثل جزر سريع حتى وجد الخواجة نفسه فى فضاء أمين مع الرجل الذى دافع عنه. ثم انهال عليهم بعد ذلك أبو عزوز لوما وتأنيبا وعاد سريعا بالرجل الذى لا يكاد يتماسك.

* * *

كان (بترو) يرتعد تحت الأغطية فقد أصيب بحمى أحس حرارتها فى كفه أبو عزوز وهو يودعه عائدا إلى العمل وعلى شفتيه ابتسامة ترفض الشكر الذى يردده الخواجة المحموم.

وفى منطقة الخيام كان الذين أصابتهم عصا أبو عزوز يتقدمون إليه واحدا بعد واحد ليأخذوا من مال الخواجة تعويضا عما أصابهم.. الكدمة بجنيه والخدش باثنين والبطحة بخمسة.

وكان هذا الاتفاق السابق لمرور الخواجة مع «أبو عزوز» وقبله بعض الناس. أما الذين لم تصبهم العصا فقد حصلوا على نفحة كما اتفق. وأصبح أبو عزوز الخليفة للمقاول الراحل بعد أن نجى حياة «بترو».

وتقدم إبراهيم الرقاص آخر الناس جميعا. كان قد عصب جبينه بمنديل مخطط وعلى فمه ابتسامة غير مبالية لا تعبر عن الألم. كان فيها سخرية من يترفع وهو محتاج. ووقف أمام أبو عزوز:

– مبروك الملكة يا سيدى.. هل ترى جبهتى؟

تحت الرباط ارتفاع مثل الدمل. نظر إليه أبو عزوز وقال له بعد أن ملأه الشك قال بصوت زاخر:

– ارفع الرباط يارقاص..

وحـــل إبراهيم الرباط من على جبينـــه.. كان تحته بعض أوراق خضراء من الحقول لاصقة بالجلد..

– ارفع هذه الأوراق أيضا لنرى الجرح الذى تحتها..

ابتسم إبراهيم وقال بهدوء غير مبال:

– لا داعى لأنك لن ترى الجرح ولو رفعت الأوراق.

– لماذا؟

– لأنه ليس فى جلدنا. بل فى قلبنا..

وتحسس شعر ذقنه النامى واستطرد فى ابتسامة:

– ضحك على الذقون.

ثم رفع الأوراق الخضراء عن جبين لا جرح فيه فسحب أبو عزوز عصـــاه الخيزرانية لكن إبراهيم أشـــار إليه بيد ليس فيها اضطراب وقال بصوت غاية فى الهدوء:

– لا.. حاسب.. حاسب..

– ماذا تقصد ياولد؟

– أقصـــد أن تحاســـبنى علـــى الأيـــام التـــى عملتها.. والســـلام

عليكم ياعم..

* * *

وبعد بضعة أيام كان هدوء الحارات فى القرية يردد صدى صوت جميـــل تعرفه النســـاء فى الدور يقول صاحبه الذى يمشـــى مختالا وقد شد حزاما على وسطه – يقول بهدوء من عاد من غربة طويلة: «أبيض النحاس وا.. بياضى النحاااس».

* * *

هروب

هــو فى هذه الليلــة يجلس فى الفناء الواســع علــى مقربة من الباب الخشــبى المصمت فى نوبة الحراســة.. تلك التى تســمى فى اصطلاحات الدواوين «بالنوبتشــية».. يشعر بحرارة الصيف ويضع قطعة من الثلج فى كوز يأخذ منه عدة جرعات كلما أحس بالظلمأ.

وهو فى هذه الليلة يشعر أنه ظمآن باستمرار. لا يكاد الماء يشفى غليلــه.. يلقى نظرة عبر الســاحة وهو يدخن ثــم ينظر إلى النجوم ويعود فينظر إلى الساحة تلك التى يراها مزدحمة بالناس معظمهم أيام الأســبوع.. كان فيها حديقة موازية للســور ظلت تتضاءل عاما بعــد عام حتى اندثــرت وفى البقعة التى كانــت تقف فيها إحدى شــجيرات الزينة نصــب صاحب «البوفيه» كشــكه الخشــبى. أما الحديقــة فقد دثرتها أقدام المتخاصمــين فى هذه المحكمة ولم يبق مكان النجيل الأخضر إلا التراب الناعم وعليه أن يرشه حتى يخمد فلا يثور غبارا.

وفاحت من الكشــك رائحة تفل الشاى المرمى على الأرض وخيل إليــه أن الصمت خيم علــى المكان فجأة وأنه كان منــذ دقائق مليئا بالنــاس. ذلــك لأن صورة ازدحام المتقاضين كانــت لا تزال حاضرة كأنــه يراها. وصــورة القضاة وهــم ينصرفون تســبقهم أو تتبعهم

حقائب مليئة بمشـاكل. كثيرا مـا رأى هذا الحارس أصحابها وهم في الفناء يتحدثون فيما بينهم عنها بحماسـة تؤكد أن الحق شيء نسبي مادام خارج تلك القاعة..

وعند ذلك تنهد هامسـا «من فينا على حق؟» عاوده الظمأ فجرع شـيئا من الماء المثلج وعاد ينظر إلى النجوم. ولم يدر لماذا عاودته في هذه الوهلة ذكرى حادة تؤلمه. وقعت له وهو ابن خمسـة وعشرين عاما. مضى عليها عام واحد ولكنها تعاوده في فترات لابد مناسـبة لأن لكل شيء سببا. وها هي ذي الليلة تلح عليه.

.. صـورة امرأة في ربيع الربيع من العمر على جسـمها جلباب مفرد. وحيد.. تصـرخ في وجهه وهي منحنية إلى الأمام وتقول له كلاما لا يكاد يصدقه..

ووقعـت عينيه بعد لحظات من هذه الأفكار على مدخل المبنى.. علـى مدخل المحكمـة.. فهناك بهو صغير بسـلالم مزدحمة على اليمين وعلى الشـمال بعقود وسقف زينها نبات متسلق فيه أزهار بنفسجية – كان كذلك ذات يوم – ثم فعلت به أيدي المتخاصمين ما فعلتـه أقدامهم في نجيل الحديقة. تحـول بمرور الأيام إلى حطب ثـم أنزل من فوق سـقف البهـو وها هو ذا قد أصبـح عاريا يحتفظ بصدى كلمات لهم لو أنها أشخاص ما استطاعت أن تعيش متجاورة ولمدة يوم..

وعـاد يقلب قطعة الثلج في الماء. ثم ألقى نظرة طويلة على البهو وتأمله وهو عار من ثيابه الخضراء وعلى أعمدته بوضوح في النهار

بصمـات أصابع لناس كانوا يختمون أوراقا. ولم يلبث أن سمع وراء بابه فى الداخل شـيئا يسـقط ثم يحطم، وكان للسقوط صدى واضح جعله يحس بمسـئولية من يحرس شـيئا. وعلى الأقـل أن يتبين الموقـف حرصا على ذاته هو إذا كان أهلا للمسـئولية التى يسـهر من أجلها.

مـن الغرفة الواقعة بجوار الباب الخشـبى المقفل المصمت والتى سـينام فيها طول ليلته – مشـى قاطعا السـاحة المتربة التى كانت تغطـى بالنجيل يوما مـا فى بعض نواحيها حتـى إذا ما وصل إلى البهو ذى السلمين اختار الشعبة اليمنى ثم فتح بابه ودخل. وأشعل النور فى الصالة التى تليه وتأمل المكان فلم يجد سـوى الصمت ذلك الذى أحس وكأنه شـىء يكاد أن ينطق. ووقف فى المكان برهة لأنه لم يسـتطع تعيين مكان الصوت. وأخذ قلبه يدق. ثم ما لبث أن أطفأ النـور وولى ظهره خارجا. غير أنه أحس بالخوف. أحس بأن ظلام الصالة قد ولد فى الحال شـيئا لم تره عيناه. فعاد وأشـعل المصابيح ووقـف ثم عنت له فكرة جديدة هو أن يفتش على بعد آخر.. وكان أقرب مكان إليه هو باب إحدى القاعات. دفعه فانفتح وتحسس زر النور بيد مضطربة فتبدد الظلام فى الداخل.

* * *

بـدت له القاعة أوسـع مما كان يراها فى النهـار. يتنفس فيها الصمـت بثقل وتفوح فى أرجائها رائحة جير وهناك فى ركن قصى

منها وجد كتلة من أديم سقفها قد سقطت. كتلة كانت معرضة لذلك منذ أمطار الشتاء المنصرم فوق سقف القاعة المكشوف. لكن ذلك لم يكن كبير الخطر للعين. وهى الآن قد سقطت على كل حال والمكان خال من الناس..

وبدت له مهابة المكان مضاعفة بل أكثر.. كأن الأماكن أقدر على احتفاظها بالزى والشخصية ربما أكثر من الإنسان. كذلك بدت قاعة الجلسات. فنسى الرجل تلك الكتلة التى سقطت على أحد المقاعد ووقف يتأمل شخصية القاعة بالليل.

كان هناك مصباح أندلسى يزين السقف من وسطه. وحوله فى أماكن متفرقة عدة مصابيح من طراز عادى. لكن المصباح الكبير كان مضاء.. وفى بعض الأركان ركدت ظلمة. أما المنصة التى يجلس عليها القضاة فقد بدت رغم خلوها وكأنها قادرة على إصدار حكم..

«على من يصدر هذا الحكم»؟..

ولعق شفتيه لأنه أحس بالظمأ. وعاودته ذكرى حادثة وقعت منذ عام. امرأة فى ربيع الربيع من العمر عليها جلباب مفرد تتكلم معه بغضب وحماسة وصدرها يهتز تحت الجلباب. وخيل إليه أنها واقفة أمام المنصة تقول الآن ما قالته له منذ سنة ثم تختفى كأنما ابتلعتها الأرض.

لم يدر لماذا استمرأ الخوف. أحس أنه من نوع مخاوف المغامرات.. مجهول ترجع فيه اللذة والسلامة. ولم يدر لماذا رفع كفيه وصفق..

وهاله فجأة أن التصفيقة بدت ضخمة ضخمة. كأن المرئيات فى هذه اللحظة تحت «عدسات» والأصوات خارجة من «مكبرات»..

ثم ود لو أنه صحب كوز الماء المثلج معه. لو أنه وضعه هنا ليشرب حتى يفرغ مما عن له أن يفعله. لكنه تناسى ذلك. وعاد وصفق. روعه الصوت لكنه على الرغم من ذلك جرب شيئا آخر. صاح وهو واقف وسط القاعة قائلا كما يفعل «الحجاب»: «محكمة».

رن الصوت بطابع غريب. بدا فى سمعه وكأنه لا يمت بصلة إلى صوته الأصلى. شد ما انفصل هذا عن ذاك واغترب الفرع عن الأصل.. كان كأنه صوت رجل آخر ارتاع منه هو شخصيا. ولم تستطيع القاعة أن تتشرب الصوت ببساطة فقد علق فى أرجائها كأنها شرقت به.. كأنها لم تسمعه من قبل آلاف المرات. وما لبث الأثر أن تغلغل فى نفسه.. فقد بدأ يشعر بالخنوع يشعر بموقف من سيق إلى هنا لا من دخل بمحض اختياره.. وعادت من جديد تلك المرأة الشابة بجلبابها المفرد. منحنية إلى الأمام وثوبها مبلول يكاد يلتصق ببطنها وفخذيها. تتكلم وصدرها يهتز. لكنها فى هذه المرة لم تكن متجهة له. كان ظهرها له. لأن وجهها كان لمنصة القضاة. وكانت تحكى لهم الحكاية.

واقترب هو من المنصة ليرى آثار وقع كلماته على وجوههم.. لم تكن منمقة ولا فصيحة مثل كلمات المحامين. بل كانت فى صدق كلمات الأطفال حين يعبرون عن مشاعرهم.. وكثير من

كلماتها لم تكمل حروفه لكن الغريب أنها كانت شـديدة الأثر على السـمع والقلب. وربمـا.. كلمة.. وضعت مـكان النصف الثانى من حروفهـا دمعة أو ضحكة مخطوفـة.. وكل هذا كان يؤدى أكثر مما تؤديه الحروف..

وخيـل إلى الرجل وهو واقف فى مكانـه أن المنصة عليها قضاة. وعندما تجسـد له ذلك الخاطر لم يلتفـت وراءه لأنه كان من المؤكد أن سيرى مقاعد الجمهور وقد غصت بالحاضرين وشعر أن ما حدث منذ عام مضى قد حضر بكل تفاصيله وأنه بإحسـاس الذنب والأسى والخـوف والرغبة فـى التطهر يتلقى الجزاء – شـعر كأن كل هذا جرعة ماء شربها قبل أن يدخل القاعة.

وحملق إليه قاض بدين أبيض الوجه أصلع تحت عينيه القويتين نفاختان تزيدهما مهابة وجعل يسأله..

لم يرد على سـؤال من أسئلته الكثيرة. تركه يسأل كيف يشاء. لكنه فى واقع أمره كان يملك إجابة لكل سـؤال، نعم.. وبعدما فرغ القاضى من أسئلته أطرق هو إلى الأرض.. سكت مليا وكأنه يسمع من خلفه أنفاس الناس. بعضهم يشـهق وبعضهم يتنهد وبعضهم يكتم أنفاس نفسه. لكنه ما لبث أن قال:

«لقد نسـيت كل الأسـئلة التى وجهتها إلى يا سيدى.. لكنى لم أنس الحكاية.. لا أرى وجوه الناس ولذلك فأنا أنظر إلى السـقف.. إنى أوجه الكلام إلى أعلى.. إلى أحسـن جهة يرسـل إليها شـىء..

أمـا هى فليسـت قضيتها أعلى منها.. وكل الذين يجلسـون ورائى يربطهم بقضيتها فضول أكثر مما هو تضامن إنسـانى.. إنى أحبها ولذلـك تزوجت.. إننى لا أرى وجهك يا سـيدى القاضى فقد تكون ساخرا من كلمتى لكنى عرفت أن كل الذين يحبون زوجاتهم تزوجوا بعدهن.. إن الشـىء الضرورى الثمين إذا غاب لا يجعلنا نعرض عن كل شـىء ولكن يجعلنـا نبحث عن بديله بين أخس الأشـياء.. قد يكون كلامى أروع من كلام المحامين لكنها ومضة.. من أثر ما أحس بـه طول السـنة.. إن منصبك يعطيك القوة علـى ضبط الميزان وأنت ممسـك به على المنصة.. أما بعيدا عن هذا.. فأنت مثلى.. الانفعال يرعـش أعصابك فيضطرب كل شـىء. لكنى طوال السـنة أحس أن هذه المنصة التى تجلسـون عليها موجودة فى داخلى... وعندما آتى وأراها هنا يخيل إلى أنها خرجت خطأ. لكنك يا سـيدى القاضى لا تملك أن تحكم على بما سـأحكم به على نفسى.. إن حكايتها لك – أقصد ما حكته السـيدة – لابد أنها على صدقها أثرت عليك. لأننى أنا شـخصيا وأنا شريكها وأول شخص شهد ما حكته – أنا شخصيا تأثرت بمـا هو فوق طاقتى وإن كنت خصما لهـا.. لذلك فأنا أتكلم ورأسـى إلى فـوق ووجهى إلى أعلى لأن هذه الجهـة أعظم الجهات الأربع.. أعظم من اليمين والشمال والتحت.

عندما دخلت عليها مسـاء ذلك اليوم كانت نفسـى متعبة. كنت أحس فى داخلى بحزازات من صديقى.. جارى.. وزميل صباى الذى

لعبــت معه فى القرية كل أنواع اللعب.. طاردنا الضفادع والضبابير ولعبنا الكرة واســتحممنا فى النهر.. وســرقنا معا.. تلك السرقات المباحة عنــد الله وعند القانون..أطفال يأخــذون من الحقول قدر ما تأخــذه العصافير من الأجــران.. ثم رحلنــا إلى المدينة.. وتزوجت ابنــة عمه.. لم يتزوج هــو. صديقى هذا وجارى.. ثــم.. كان لزاما على أن أقــوم له ببعض خدمات نظير ما يقرضنى من مال.. فكانت زوجتى تغسل له ملابســه مع ملابسى.. و.. وتكويها.. ثم، بدأت أرى فى العيون ما أفزعنى.. لكننى لم أصل بالرغم من محاولاتى إلى أول الخيط بتاتا. فى الخارج لا أرى شــيئا. وفى داخلى أرى أشياء كثيرة.. لكن.. هل تســمح لى بجرعة من الماء.. لا داعى فإن عطشى لــن يطول. عدت مرة ذات ظهر فرأيتها فى المســكن. جالســة على الغســيل. عليها جلباب وحيد مفــرد.. مبلول. فى ربيع الربيع من العمر. وقد انكبت على ملابسى تغسلها.

وقفت خلفها أكلمها. كانت بادية الســهوم. لعلها كانت متعبة. لســت أدرى. أنا مسئول عما فى داخلى.. لكننى حملقت وحملقت. ظهرها لى وهى جالســة وأنا واقف. كان بــين يديها قطعة ملابس داخلية تغســلها بعناية. تنشرها بين يديها لتتأكد من نظافتها ثم تعيدهــا إلى الماء. حيــث كفها لا تكاد تطيــق حرارته وقد احمرت حتى أوشكت تتورم.

أحسست بشيء غريب. شيء هو امتداد لما مضى. ولما سألتها عن!!.. قالت إنها ملابسه.. أحسست بأخلاط من الضيق والضجر والغيرة. فقلت لها ما جعلها ترمى بقطعة الملابس بعيدا عن الطشت ثم قامت واقفة تكلمنى محتدة. وجهها لى وهى محنية إلى الأمام. تدافع عن نفسها وهى فى وضع غريب. جلباب مفرد.. لاصق ببدنها فى الأماكن. ووجه ملتهب من الغضب والحرارة. ودموع فى العين.. ورعشة على الشفة.

وقد توحى حرارة الدفاع بالشك. فتبادلنا التهم. أنت السبب.. هو ابن عمك.. لو شئته من أول الأمر لتزوجته.. بعض الناس لا يريدون إلا آخر الأمر.. لا داعى لهذا الكلام فنتيجته مرة.. اذهبى فالبسى شيئا تحت هذا الجلباب إن كنت تخافين على جسمك.

وعندئذ يا سيدى بلغ الأمر نهايته فصرخت فى وجهى وشقت ثوبها: وكان المنظر مؤسيا. فلم أدر ماذا صنعت. غير أنى فى نهاية الأمر وجدت جرحا صغيرا من أظافرها فى خدى الأيسر.

ثم دخلت الحمام لتستحم وتلبس ثيابها.. فلم.. تخرج.. قتلت نفسها.. أنا الذى قتلتها.. أنا.. الذى.

* * *

وأجهش بالبكاء. وأنزل نظرته إلى مستوى المنصة. ومن خلال الدموع رآها خالية. شعر أن الأمر لا يزيد عن كلام «نوبتشى» فى

قاعــة محكمة. وليس علــى المقاعد جمهور. ولا فــى الغرفة اتهام ولا دفاع.. وعاوده الظلمأ. وتلفت فإذا بالمصباح الأندلسى ثابت كأنه أثقال. لكنه ما لبث أن أحس بالحســرة. أحس أنها أوحشــته. كم يتمنــى أن يراها.. لم تلهه عنها زوجته الثانية... أحس بالخوف وعاوده الشــعور الأول فما لبث أن ســار ولم يخرج من الباب ولكنه مشى حتى صعد المنصة. وهنالك جلس فى الوسط تماما مكان القاضى وحملــق فى الســقف. لم ينظر إلى أى اتجاه آخر ثــم دق عدة دقات بقبضة كفه كما يدق القاضى بالمطرقة الخشبية. ثم ما لبث أن هتف بأعلى صوته: «براءة.. براءة..».

رن الصــوت فى المــكان الخالى فنزل يجــرى وهو يحس بعطش شديد إلى الماء المليء بالثلج فى خارج القاعة.

* * *

تجربة شخصية

«الليلــة برد قــارس وليس من المحتمــل أن يزورنى أحد. على كل حــال هذه فرصــة للتفكير. أو للقراءة أو لإعداد مقال الأســبوع القادم..».

وعند هذا الحد ســكت. ثم أخذت أفــكاره تتواثب من جديد من مكان إلى مكان. وهو متدثر بأغطية من الصوف جالســا على كرســى مريــح. وها هو ذا قد أصبح فى الشــقة وحيدا بعــد أن انصرف من المنزل ذلك الشاب الذى يقوم على خدمته لأن والده مريض.

وعندئذ قال فى نفسه: «والده أولى منى برعايته وإن كنت حقيقة قد أحتاج إلى شىء لكن ذلك لا يهم» ونظر حوله. فى الحجرة المقابلة مكتبــة له. وفى الحجرة التالية ســرير لم يرتب قــط إلا بيد ذلك الشــاب ومن قبله شاب ثان ومن قبله أيضا شاب أول.. سلسلة شاقة جعــل يتذكرها بعد فــوات الأوان لكنه لم يكن يشــعر بالندم فلقد وهب حياته لناس آخرين منهم من يعرفه ومنهم من لا يعرفه وهو يشعر الليلة شعورا مؤكدا أنهم جميعا أبناؤه..

ثــم ما لبث أن انصرف عــن هذه الأفكار. ونظــر إلى منضدة فى الركن وابتسم كطفل عثر فجأة فى مخبأ فى البيت على لعبة كان قد نســيها. فعلى هذه المنضدة وضعت فى طبق فطيرة صغيرة.. محشوة

بالفواكه وموشـاة بها. ومن الممكن أن يأكلهـا كلها لأنه يحب هذا النوع من الفطائر ومن الممكن أن يكفيه نصفها ويترك النصف الثانى حتى الصباح.

وفرك كفيه وفكر.. الدنيا برد.. لو أنه يستطيع أن يصنع لنفسه فنجالا من الشاى الساخن!!

ويقطم منها ويشـرب ويمضغ ويقرأ ويفكر فى هدوء الوحدة التى يتمنى ألا يقطعها عليه زائر. وتذكر كتابا. فقام يبحث عنه. ولسبب غير واضح ضل طريقه إليه فلما تعب عاد إلى مكانه من جديد وجلس يدخن. عيناه معلقتان بالشباك الذى استرخت عليه ستائر لا يعبرها صوت من الحى الهادئ.. وعندئذ شعر بالاسترخاء. شعر كأنه يريد أن ينام. لكنه أحس بحاجة أكبر إلى فنجان من الشاى الدافئ.

وعندما هم بالقيام سمع دقة جرس الباب فابتسـم وسأل نفسه: من هذا يا ترى؟ وقام ففتح فدخل ثلاثة من الأصدقاء الذين يحملون ذكريات عمر مشـتركة.. ذكريات اتفاق واختلاف فى الرأى وحب وتقدير لا يفسـده أن يختلفوا. فقال لهم عندما رآهم: كنت أظن أن برد الليلة سـيجعلنى وحدى. لكن كيـف جئتم؟ فقال أحدهم وهو أكثرهم مرحبا: إن لذلك قصة طريفة يا أستاذ فأنت تعلم أننا نسكن ضاحية المعادى وأن بيتك فى وسـط القاهـرة وأننا هنا الآن، وربما أننا لم نرك منذ عشرة أيام وبما أننا أيضا مفلسون وفى أواخر الشهر فقلنا نمر عليك ونراك. لعل وعسى.. وأنت تفهم الباقى.

فضحك متهللا. وتذكر «نادرة» المطعم حين دعوه لتناول العشاء ثم احتالوا عليه حتى دفع الحساب. لكنه قال مشيرا إلى الركن حيث الفطيرة الشهية:

– هذه الفطيرة كما ترون. كنت محتفظا بها لنفسى أو.. أو على الأكثر لشخص آخر معى. فهى طعام لاثنين فقط. أما الآن بعد أن حضرتم وليس عندى غيرها فقد أصبحنا أربعة. وكلكم يعرف كيف تقسم هذه الفطيرة المستديرة.. بنفس طريقة قسمة الرغيف. نصفان أولا ثم كل نصف يقسم إلى نصفين.. والأمر لله يا سادة.

فرد أكثرهم ظرفا:

– ما أحلى هذا!! ولو أنها لا تكفينى وحدى. أنت مفكر وتعلم أن المفكرين لا يأكلون. إن غذاءهم فى داخلهم وليسوا محتاجين إليه من الخارج. فهلا تفضلت وتركت لى نصيبك منها.. لا تنظر إلى ساخرا فكثير من الآباء يحكمون على أنفسهم بالحرمان بين أولادهم الكثيرين فاعتبرنا أولادك فى هذه الليلة وتفضل بحرمان نفسك مما تشتهى ولا تحزن فهى مسألة شائعة.

فرد وهو يدق كفا بكف:

– لكننى لست مسئولا عنكم. أما الأب الذى تقول عنه فهو مسئول.

قال ثالث:

– لماذا إذن سمحت لنا بالدخول. لو شئت لتركت الباب مقفلا

فى وجهنا وارتحت مــن متاعبنا وأكلت الفطيرة وحدك، أو أبقيت نصفها حتى الصباح؟

فقال رب البيت:

– على كل حال هذه بلوى محتملة ولو أن فيها مشقة على. ليقم أحدكم فيصنع أربعة فناجيل من الشاى ولا ينسى أننى أحبه خفيفا حتى أستطيع النوم..

وقــام اثنان منهم إلى المطبخ. أخذ أحدهما يعد الشــاى على حين رجع الثانى بسكين. ودخل وقد رفعها فى الهواء مثل السيف وهو يهتف:

– اتركنى عليها لأجعل الشربات تسيل من جسمها الحلو.. ولن أجــور ولن أظلم.. نحن أربعة.. لكل منــا ربعها. ما أحلى وجهها المدور «ثم همس له» نحن اثنان الآن فلماذا لا نأكلها فى هذه الفرصة وهم هناك يصنعون الشــاى. لا يكلف الله نفســا إلا وسعها.. لنترك لهما الشاى ولنأكل نحن الفطيرة أنا وأنت.. هلم.

رد رب البيت قائلا: هذا ما يحدث دائما إذا ما تزاحمت الأفواه علــى شــىء ولعله كان من الخــير أن أخفيها عنكــم. لكن بما أنكم اعتبرتم أنفسكم أبنائى فليأخذ كل منكم قطعة صغيرة قدر ما يأخذ أخوه. آه.. هل تسمع المطر فى الخارج؟! ثم قال لى.. ماذا عمل ابنك السابع فى امتحان نصف السنة؟

فرد الضيف:

– إنك عالم نفســانى. تذكرنــى بهمومى لأنســى الطعام. تثير

أشجانى لصالحك الخاص. «وضحك» إنك على حق فأنا عندما أنادى «حسام» أنسى فأقول يا «عصام»، وإن كنت فى الحقيقة لا أقصد إلا أن أنادى «همام» وعندما أهتدى إلى الاسم المطلوب الذى أريده أجد الثلاثة أمامى كالعفاريت وعندئذ يبدأ كل فى رفع شكوى أو طلب شىء.. آه.. تريد أن تنسينى الشىء الجميل بإثارة همومى.

فعاد رب البيت يضحك وسمعت وقع أقدام رجل غير مدرب يحمل الصينية عليها أربعة فناجيل دخل بها مرتبكا فسالت حوافيها فلما حذروه زد ارتباكه وساد المكان ضحك لرجال ناضجين شغلهم جد الحياة سنحت لهم فرصة للهو فاغتنموها.. ووضع الشاى وأمسك السكين أبو السبعة ليقسم الفطيرة فقال له أحد الضيوف مازحا:

– لا. دعها لى. أنا أكثر منك عدلا لأننى أقل منك رغبة كما أننى آكل كل أسبوع من هذا النوع. أما أنت فلا تعرفها إلا فى أعياد الميلاد يا صديقى.

وقفا يتنازعان السكين وهم يضحكون وطال النزاع فما أخرجهم منه إلا دقة جرس الباب مرة أخرى، عندئذ ضحك رب البيت وانتبه الضيوف. وقال أحدهم: «همس. أذن من طين وأذن من عجين. المفروض أنه لا أحد هنا وأن الأستاذ قد نام».

فقال رب البيت:

– لا افتحوا فربما كان الشاب الذى يقوم بأمورى ولا تنسوا أن والده مريض: وربما كان محتاجا إلى شىء ما.

فذهب أحدهم يجرى. وعندما فتح الباب له ارتفع صراخه. فأخذ الرجال الثلاثة فى داخل الشقة إذا أيقنوا أن فى الأمر مكروها. لكنهم ما لبثوا أن عرفوا أن سبب ذلك هو دخول ضيف خامس سيشاركهم فى الفطيرة والتى لا تكفى إلا ثلاثة منهم على الأكثر.

ونظر الضيف الجديد مبهوتا. وقال: ماذا أصابك يا أبا حسام. حرام عليك أفسح لى الطريق لأدخل وأقفل الباب.. ورائى الدنيا برد والسماء تمطر. وهناك رعد وبرق. ولعلى أجد شيئا أستدفئ به.

فقال أبو حسام متسائلا:

– ليس هذا مهما. المهم أن تقول لنا: لماذا جئت فى مثل هذا الجو؟

فقال:

– عذر متعلق بالجو أيضا. والله لا شىء إلا الجو. أوه... أعطنى أولا نصف هذه الفطيرة وفنجالا من الشاى.. لا تصرخ تمهل فإننى سأقول السبب.. السبب هو أننى مسافر غدا. وجعلت أنا وزوجتى نبحث عن معطفى فلم نجده لا فى السماء ولا فى الأرض. فجعلت أتذكر حتى رجحت أنى نسيته هنا ليلة أمس. ولذلك جئت.

قال رب البيت:

– إنك على حق.. إنه هنا. دفء أمس أنساك المعطف وذكرك به برد الليلة. ونحن نذكر دائما ما نحتاج.. ولذلك فيجب ألا تنسى المعطف بالفطيرة هذه التى تزاحمتم عليها حتى كدت أضيق بكم.

فقال أبو حسام:

– المشـكلة ليست فى المعطف بل المشكلة فى الفطيرة. نحن نريد مهندسـا ليقسم لنا هذه الدائرة الصغيرة ببرجل إلى خمسة أقسام.. يـا إلهى.. كأن المشـكلة تطاردنى. كنت متحيرا فى شـىء من هذا القبيل أنا وزوجتى من أجل أولادى السبعة لكنها مشكلة لا يحلها مهندس، ولو أن المهندس يحلها لرجع إلىّ عقلى الذى ضاع.

وضحكوا. وبدأ هو نفسـه يقسم الفطيرة إلى خمسة. وقام أحدهم ليصنع له فنجالا من الشاى لكنه تحير فى الأمر فقال له رب البيت:

– مهلا.. لا تتعب نفسك. اقسمها على أربعة..

فرمى السـكين وصفق ثم عاد فأمسـك بها وسـأل: وما السبب؟ فأجاب رب البيت:

– لقـد تنازلت عن نصيبى لأننى فى الحقيقة أكلت واحدة منها وحـدى.. وليس بى حاجة إلى شـىء جديد، وكل مـا أحتاجه هو فنجال من الشاى.

فرد أبو حسام:

– مرحبـا برأيك!.. ما أعظم هذا!! إنك تشـبهنى أو أنت على الأصح تشـبه زوجتـى!! أقصد أننا فـى بيتنا نتنازل عن أشـياء ضرورية مدعين عدم أهميتها. ومشكلة هذه الفطيرة كمشكلة البيت الذى سأذهب إليه. وأنت أيها السيد نسيت المعطف لتحرم الأستاذ من نصيبه.. هيا كلوا قبل أن يبرد الشاى!!

* * *

وبدأ الأربعة يأكلون. وبدأ الجرس يدق لكن أحدا منهم لم يحاول أن يذهب ليفتح الباب. وألح الطارق كأنما كان يستنجد. فلما هم رب البيت بالقيام ليفتح قال لهم أبو حسام وصوت المضغ يقطع كلماته بعد أن قطع الطريق على رب البيت:

– إن فتحت له الباب كنت مسئولا عن طعامه... هذا مفهوم طبعا. وبما أنك لا تملك سوى ما قدمته لنا بعد أن حرمت نفسك من أجلنا فلا تفتح الباب لأحد.. حرام أن يتبع بنظره ما فى أيدينا.. لا لن تفتح له.. كلنا أصحاب مصلحة فى اعتراض طريق قادم جديد.. وهذه الحماسة التى أكلمك بها من مرارة تجربة شخصية. دعه يطرق الباب حتى ييأس. فهو مادام فى الخارج فلن يلومك إذا لم يأكل من هذه الفطيرة لكنه بعدما يجىء فيصبح حقه فيها مقدسا.. مثل حق أى منا.. لا تتضايق فقد فرغنا الآن من مهمتنا.. «وضحك» ها أنت ذا ترى الأطباق فارغة وكذلك الفناجيل.. آه.. والآن اذهب يارب البيت وافتح له إن شئت، فنحن الآن فى أمان.

لكنهم عندما صمتوا وأرهفوا السمع كان الجرس قد كف عن الرنين. فلما ذهب أحدهم وفتح الباب ليتأكد وجد البسطة خالية والظلام مخيما عليها.. ولا أحد. فلما عاد يعلن إليهم ذلك قال رب البيت لأبى حسام مداعبا:

– تعلم الناس وتنسى نفسك. لماذا وأنت ما هو فى الحساب هكذا تقع فيما تنهانى عنه وتفتح الباب لمن لا طعام لهم عندك مع أننى يا أبا حسام لم أقع فى شىء من هذا.

فرد عليه قائلا:

– لا شـــيء أغلـــى من نصيحـــة من جرب حتى لـــو لم ينتفع هو بتجربته.

فرد أحدهم سائلا:

– وكيف ذلك؟

– فقال أبو حسام:

– لأن حســـرته على نفســـه تجعل دعوته للآخرين أشد حرارة وبقاء وصدقا.

* * *

الفهرس

الصـــفحة

حافة الجريمة.....٣
التذكرة الخضراء ١٥
وجها لوجه.....٢٥
يوم الحصاد.....٣٥
المخدع.....٤٣
لعبة كل يوم ٥٥
العش.....٦٧
سنابل.....٧٧
الساهرون ٨٧
تعاطف.....٩٧
ظلال الليل ١٠٩
زفاف إلى الجنة ١١٩
الأم الثانية ١٣٣
الدرس ١٤٣
مملكة التراب.....١٥٣
هروب ١٦٥
تجربة شخصية ١٧٥